

٧٩. ما موقف الإسلام من تحديد النسل؟

يطلق هذا العنوان على قضيتين مختلفتين كل الاختلاف، الأولى تعنى التحديد المؤقت بعبارة أدق تنظيم النسل، أما الأخرى فتعنى تقليل عدد الأمة، وحصره في رقم معروف مثلاً، وتوجيه الأفراد بعد ذلك لتنفيذ مطالبه ..

ونتناول القضية الأولى، فتواجه حالات فريق من النسوة يحملن ولم ينقض على وضعهن عدة أسابيع!

إن هذا الحمل يجيء، والأم ضعيفة غالباً من آثار الولادة السابقة، ورضيعها بين يديها يحتاج إلى عناية موفورة، والجنين الجديد ينشأ في ظروف صعبة، فإذا تم وضعه اشتغلت الأم بولدين يرهقانه ويؤمن أحدهما الآخر ..!

من حق الأم أن تتقى هذه المشكلة، وأن تؤخر الحمل بعد ولادتها نحو سنتين تتم فيهما الرضاعة، وتقوى على حمل جديداً ..

وجمهور الفقهاء يبيح ذلك ويرى أن هذا التحديد المؤقت للنسل يحقق مصالح لها وزنها، ويشترط أن يتم ذلك بوافقة الزوجين، وباثبات وسيلة لا تضر الأم، فإن كثيراً من الأدوية للثامنة للحمل تترك آثاراً سيئة على الأمهات والأجنة! ..

والواقع أن هذا التنظيم فردى لا جماعى، وأنه لا يضع رقماً معيناً للأولاد، فما تقدمه الأقدار هدايا جديرة بالخفاوة، ومن الغرور الزعم بأننا نسعد ونشقى! ..

وهنا يجيء الحديث عن القضية الأخرى، قضية ألا يزيد عدد الأمة المصرية أو العراقية أو الباكستانية عن رقم معين، أو نسبة مضبوطة في الزيادة السكانية.

ونحن مضطرون إلى ذكر حقائق قد يكون بعضها مخجلاً، أو يكون من وضع ساسة يكون للإسلام وأمة أخيب النيات ..

ونبدأ بالتنبية إلى أن الحلول الجغرافية التي رسمت لدار الإسلام وشعبها في هذا العصر حدود وهمية مزورة لا اعتراف بها من الناحية الدينية ..

فلكل مسلم أن يطلب رزقه في أى مكان يشده بين الأطلس والهادى، دون أى قيد، وخيرات الأرض الإسلامية متاحة لكل من يتطق شهادة التوحيد، لا يحجب عنها مولده في قطر من الأقطار ..

ومن الجاهلية تكليف شعب في إفريقيا مثلاً بتغليل عدده لأن نتاج أرضه قليل، على حين أن الأرض الإسلامية في آسيا ثرية بالنباتات! هذه تعاليم استعمارية لإفساد الأمة الإسلامية كلها بزيادة الفقر في جانب وزيادة الغنى في جانب آخر، وهي تتوصل بالتزعزعات القومية لإشاعة هذه الفوضى التي لم تعرفها دار الإسلام منذ بدأ الإسلام! ..

ولو فرضنا جدلاً أن العالم الإسلامى قل خير وحققت بنيابيعه فإن المسلم لا يرتبط بمسقط رأسه، ولا بديار إخوانه في الدين! أمامه الله وأبعده! ليس يقول الله: ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذللاً فامشوا في مآكبيها وكنوا من رزقه وإليه النشور ﴾^(١) .. ليس يقول: ﴿ وأقد مكنائكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون ﴾^(٢) ..

لماذا لا ينتشرون في أرجاء الدنيا وينشرون دينهم كما فعل أبائهم الأقدمون؟ ..

الحق أن قصة تحديد النسل بين المسلمين خاصة وراءها فضيحة إنسانية تصحك وتبكى! .. هذه القضية هي ضمور المواهب البشرية في أجيال من الناس تمشى فوق مناجم الذهب، وتكسل عن أخذ ما بها! أو تعجز عن افتتاح أبوابها! ناس يعيشون على الشواطئ ولا يحسنون الصيد! ولا يتقنون الزرع، وقد تكون تحت أقدامهم بحيرات من البترول، ولكنهم مشغولون عن استخراجها بالسمر والثروة والفخر بالأباء!

إن الأموال التي تنفق للإغراء بتحديد النسل، لو أنفقت في تحريك الأجهزة العقلية المتوقفة عند هؤلاء لكان ذلك أجدى!

لكن كيف تتغير مصارف هذه الأموال، وهي من أثرياء اليهود في أمريكا وأوروبا؟ .. إن القوم يريدون أن يقل النسل بين المسلمين خاصة لأغراض معروفة! ..

(٢١) الأعراف: ١٠.

(١) التلك: ١٥.

الأم مدرسة إذا عمدتها . اعتمدت شعباً طبيب الأعراق!

قال السيد الزبير : هذا الحديث ذكرني بأشياء شاهدها وعشتها في اليابان . سافرتي الفزوف إلى هناك على ظهر سفينة يوانانية ، كنت ضمن بحارنها كانت السفينة محملة ببول صوريا .. من ميناء نيو أورليانز بأمریکا إلى ميناء يوكوهاما والباقي في ميناء آخر في اليابان نفسها .. عملية التفريغ تتم دائما مثل هذا النوع من الحبوب ، بواسطة أنابيب كبيرة توضع داخل العنابر وتشفط الحبوب بواسطة الضغط إلى صومعة الغلال مباشرة .. أسرع طريقة أشاهدها .. أي في غضون خمسة أيام تفريغ سفينة حمولة قدرها ثمانون ألف طن .. هذا غير الذي شاهدته في ميناء الإسكندرية ، حيث مكثنا ثلاثة أشهر بالتمام لتفريغ حمولة بنفس القدر من القمح بواسطة الجولات .. نصفها يضيع على سطح السفينة وداخل الماء طمانا للسمك ، والنصف الآخر تحمّلها تrolات إلى داخل البلد ، والقمح يصب من الجولات المتهترئة على الأرض .. في شريط ليس له نهاية ..

إن هذه الظاهرة هي التي رأيتها في الإسكندرية والألف الشديد تعود إلى اليابان ، بعد أن تم تفريغ الشحنة في يوكوهاما بدأتنا نسمد لمخازن الميناء ، ولكن قبل المخازن كان يجب تسوية أكرام فول الصويا داخل العنابر ، كي لا تحل السفينة وتعرض لخطر الغرق .. إذا كان لزما على المسئولين في الميناء القيام بهذه المهمة .. بعد ساعات قليلة رأيت مجموعة من النساء العجائز يهرعن إلى السفينة وهي يحملن معدلات العمل من جبال ، ومخازن وجولات ، أقول نساء عجائز صغير أصغرهن يقارب الستين عاماً .. عصر جدتي بادي دى بدء لم أصدق ، قلت : ربا جيش لمساعدة العمال في أشياء خفيفة .. ولكن رأيت النساء ينزلن العنابر كالشياطين ويبدأن العمل بهمة لا تعرف الكلل .. وأى عمل .. عمل شاق يصعب على الرجال الأشداء .. أنا كبحار وزجل عندما أنزل في هذه العنابر على السلالم الخديبية ، العارية من أى مكان ، أشعر بالدوار والرهبة ؛ لأن عمق العنابر نحو خمسة عشر متراً ، وطوله أكثر من خمسين متراً كله مبنى من الحديد .. رأيت النساء ينزلن ويصعدن هذه السلالم في دقائق معدودات .. تعجبت من هذه الامة .. قلت إذا كانت نساءؤم يعملن هكذا ، فكيف يعمل الرجال إنهن يحققن

وتتسائل : ما الجدى آخر الأمر؟ إنه بطل أن يكون التعداد ٥٠٠ مليون كـلآن سيكون ٤ مليارات فقط أبهنا تهفئ الام؟ أو نحل المعضلات الاجتماعية؟ ..
ولقى نظرة أوسع على العالم أجمع ، أصبح أن خبرات الأرض دون إعداد البشر التي تنمو بالطرد؟ ..

الذي نراه أن جهوداً هائلة في الإنتاج الزراعي والصناعي تجهد عمداً في أسلمة الدمار الشامل! إن الله لم يقتل البشر بتقليل رزقه واجاعة خلقه ، ولكن البشر يتظالمون ويتحورون بالآثرة والمردان ..

والمسلمون يحملون وزراً مضاعفاً في تلك القوضى ، لأنهم يجهلون ما لديهم من حقائق أو يجهلون بها ، وهوانهم الإنساني أزرى برسالتهم وزهد الآخرين فيها! ولو هبطوا إلى نصف عددهم ما أغنى عنهم ذلك! وأثبت هنا هذه الكلمة في العدد ١٥٦٠ من صحيفة فالشرق الأوسط في عمود أسود وأبيضه كتب الاستاذ فاروق لقمان كلمة عن اليابان وسر تطوروا حضارياً وصناعياً ، وكيف أصبحت طليمة زاهية في العالم الأول ، وكيف أن أمريكا وأوروبا معا تخشيانها ، وتوهجان منافستها لهما! ..

وعزوا الكاتب سر هذا الارتقاء إلى الأم اليابانية ، فهي التي تغرس في أولادها خصائص التفوق ، والإصرار على النجاح ، وفضائل الصدق والإخلاص وحب الوطن... إلخ .

والواقع أني أحسست بالاسي لأن الأم الإسلامية لا تعي شيئاً من هذا كله ، لقد كتب عليها باسم الإسلام القنرى عليه ألا ترى أملاً والألا يراها أحد ، ومنعت منعاً باتاً أن تدخل مسجداً أكثر من عشرة قرون! ومنعت منعاً باتاً أن تدخل مدرسة أو تتلقى علماً في معهد خاص أو عام ، كأن تجهلها دين ، حتى قيل : لولا اختفارة ما فتحت جامعة أمام طالبة ، بل ما فتحت مدرسة ابتدائية!!

وأخترت أن يسأل الإسلام عن هذا الهوان!!

ثم قرأت بعد ذلك تعليقاً للسيد الزبير محمد نيز سليمان يؤيد فيه تعاون الجنين في اليابان على النهوض بمستويات الامة كلها ، وتؤكد عظمة التعصيب الذي تسهم به والامة! ما يذكر بقول حافظ إبراهيم :

٨٠. لماذا حرم الإسلام الخمر؟ وما عقوبتها؟

بين يدى العدد ٢٨ الذى أصدرته منظمة الصحة العالمية سنة ١٩٨١م عن الكحول والمخاطير الخدرة، وقد أطلت النظر فى صحافته فوجدتها مملآة بالندى من ضراوة الخمر وذلك الخدرات، ووجدت دراسات طبية واحصاءات اجتماعية تثير الشاؤم بسبب كثرة السكرارى والمدمنين..

تحت عنوان ضمن الكاسى، جاءت هذه العبارة: إن الخمر شراب يبعث على السرور والاسترخاء لدى الألووف المرافقة، ولكن المشكلات التى تنشأ عنها تعوق التنمية الاقتصادية والاجتماعية، بل تهدد بضياعها المرم كل الخدمات الصحية المتاحة..

ثم يقول الكاتب وجون مادلين، إن الخمر تسببت فى وفاة ما بين ٣٣٪، ٥٠٪ من ضحايا حوادث الطرق فى البلاد المتقدمة، وتزايد نسبة الوفيات فى العالم الثالث، والكحول مخدر يمكن أن يحطم الحياة العائلية، ويكلف الكثرين فقدان مكائتهم الاجتماعية، أو وظائفهم ومواردهم التى تؤمن حياتهم..

كما يسبب الكحول ثلاثة من عشرة من حوادث العمل، وهو أساسى فى ضعف الإنتاج، كما أنه سبب رئيسى فى ارتكاب الجرائم، ذلك إلى جانب أن الكحول يؤدى إلى تليف الكبد، وهو يشكل عبئا ثقيلا على الخدمات الصحية فى جميع أنحاء العالم، وفى أستراليا مثلا نراه العلة الأولى وراء نصف المرضى فى مؤسسات الصحة النفسية..

والخمر من وراء فقدان الملايين من ساعات العمل على امتداد السنة وقد قدرت الولايات المتحدة خسائرها فى الإنتاج - بسبب الكحول - بعشرين مليار دولار سنوياً..

وفى مقال آخر عن الخمر والنساء تقول الكاتبة: إن النساء المدمعات يعانين أكثر من الرجال من أمراض الكبد، رغم المقادير التى يتناولنها، كما أن

المعجزات التى لا تتخطى على بالك.. فلا عجب إذا رأيت البيانات فى هذا الملو الشائق من العلم، والتطور، والتكنولوجيا والصناعات التى أذهلت أوروبا وأمريكا.. إننى أسجل هذه القصة لأنها تشير إلى عمل ما تقوم به بعض النسوة وإن كنت أتردد - ولعل ذلك من آثار التربية، وطباع البيعة - فى اختيار هذا العمل لمجانزنا..

بل إننى رفضت أن تقوم النساء بغسل شوارع وموسكو ليلا، وعافت نفسى إسماء هذه الهن لهن عندنا..

إن كل الذى أريده تنفيذ تعليمات الرسول ﷺ فى أن النساء شقائق الرجال، وتنفيذ الحقيقة القرآنية.. ﴿لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ (١).

أما هذا الحق لشخصية المرأة، وعدها للمهام الجديدة وحدها، فذلك صريح أعتمد أن تقاليد الصحراء هى المسئولة عنه، لا تعليم الإسلام، ومن الظلم أن يؤخذ الإسلام بتقاليد أمة من الأمم التى دخلت فيه..

على هذه الأمة أن تتقادم لتعاليم الإسلام، لا أن تفرض تقاليدها على هدايات الله..



ومن السخف كذلك تصور الشارع يحرم الخمر المسائلة ، ويتجاوز عن عقاقير جامدة قد تكون أشد من الخمر ضرراً وأظلم فتكاً ، وإذا كان أئمة الفقه الأقدمون لم يذكروا الخيش والأفيون فلأن بيئاتهم لم تعرفه ..

فلما ظهرت بعض اغترافات أيام ابن تيمية عدما لغوره من الخمر ، وفي أيامنا هذه ظهرت عقاقير أخرى كالكوكاين ، والماريحوانا وغيرهما فتعال العقول ، وتهاك المدن وتتأصل إنسانيته فكيف تترك؟

وفي الحديث : كل مسكر خمر ، وكل مسكر حرام ، وفي حديث آخر : إن من العيب خمرًا ، وإن من الخمر خمرًا ، وإن من العمل خمرًا ، وإن من البر خمرًا ، وإن من الصغير خمرًا ، وأنها كم عن كل مسكر !! ..

وظاهر من الحديث أنه يسوق غايج ، ثم يذكر القاعدة العامة ، ونحن لا نهتم بالأسماء ، ولا بالمصادر ، وإنما نهتم بالتشخيص العلمي للأشربة والعقاقير ، فما ثبت تغيبه للعقل ، أو ما أفقد له اثره المكري المسمى للأشربة والعقاقير ، فما لم تكن الخمر مألوفة في البيئات الإسلامية ، وأذكر أنني في طفولتي سرت مع موكب كفيف من أهل قريتنا وراء رجل ثمل ، نستغرب غايه ونستنكر سكرها وعرفت أنه سكر في حانة فتحها بعض اليونانيين في ظل الاحتلال الإنجليزي ..

ثم أخذت الخمر تشيع مع هيئة الاستعمار على شتونها ، ثم أمنت معودة في الأحوال والديبلوماسية ، وعلى موائد بعض النخب !! ..

والواقع أن الخمر غامضة الحكم بين النصارى وأغلبهم يستحل قليلها ، ويأى عن كثيرها ، وإن كان القليل عادة يجر إلى الكثير ، وتلك طبيعة عامة في الأشربة المسكرة والعقاقير اغترية ..

ومع اضطراب الأعصاب ، وما ولدت به المدينة من هموم ، وأينا من يؤثر الغيرة على مواجهة المكرا ، ولا بأس أن يغمض بصره أو بصيرته حتى لا يرى ما يكره ..

أهو منطق العامة؟ أم هو لون من الانتحار؟ أم هو التماس السرور في الأوهام كما قال الأعرابي الأبله :

وإذا سكرت فبائس
وإذا صحت فبائس
وإذا سكرت فبائس
وإذا صحت فبائس

استجابتهن للعلاج أقل من استجابة الرجال ، وتنتهي أجهلن في سن أصغر من نظرائهن من الذكور .

وفي مقال عن الخمر والشباب بدأ الكاتب حديثه بهذه العبارة : عندما يشرب الاباء الخمر ، فإن الابناء هم الذين يدفعون الثمن .

والواقع أن الاباء والأبناء جميعاً يدفعون الثمن الفادح إن كانت العبارة الأولى هي التي رفعها الفرنسيون شعاراً لهم في أعقاب الحرب العالمية الثانية !! ..

وما بلغت النظر أن المستعمرات بعد تحررها يزداد استهلاكها للخمر ، وإن دولا كثيرة في العالم الثالث تقل على السكر وتوجه إلى الإدمان ، وليس هذا عجيبة ، فإن الفهم الأعوج للحضارة والتقليد الأصم للفرنبيين من وراء هذا الانحطاط المبين ..

إن الإسلام حرم الخمر ، وعلمنا من كبار الإثم ونظمها في سلك واحد مع الزنى والسرقه ، ففي الحديث : لا يزنئ الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ..

وعن أنس بن مالك : لعن النبي ﷺ في الخمر عشرة : عاصرها ، ومعتصرها ، وشاربها ، وساقطها ، وحاملها ، والعصاة إليه ، وبائعها ، ومبتاعها ، وواهبها ، وأكل ثمنها !! وظاهر من هذا الاستقصاء أن الشارع يريد قطع دابرها ، وسحق آثارها ، وإغلاق كل الأبواب التي تؤدي إليها .

والقرآن عدما مع الوثنية والقمار وأوهام الشرك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْيَسْرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْوَاجُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوا لَعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ ﴾ (٥٧) إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر واليسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم متنبهون ؟ (١١)

والخمر كل ما غطي العقل ، وأعجز الفكر أي كان مصدراً يستوى فيه العيب والبرز والغصب ، ويستوى فيه الجأهد والسائل .. فإن القصد واضح ، الله كرم الإنسان بالعقل ، فما أصاب العقل حرام ..

إن دولاً كثيرة عاقبت تجار الأفيون ومتناوله بالقتل ، ولم يسلم لها كيانها إلا بهذا المقالب الصدام ، ومع أن قليلاً من الأفيون يحتاج إليه صحياً ، وفي مجلة الصحة المالية التي أرمأت إليها أنفاً : ١٠٠ إن المواد المشتقة من نبات الأفيون مثل الكوديين ، والورفين ، ومفرزات مهمة في دستور العقاقير ١١٠٠ . فهل شفع ذلك في تخفيف العقوبة على مروجيه وملصقيه ؟؟

فلماذا تنهارون في مجال السكرات ، ثم تشتط في مجال المخدرات ؟ قد تكون نسبة الكحول في البيرة وما يشبهها ٢٣٪ أو يزيد قليلاً ، بيد أن الملحوظ في هذه الأشرة أن قليلاً يحتر كثيرها ، أي إن الذي يشرب زجاجة من البيرة يتجوع من سُموم الكحول مثل أو أكثر من الذي تناول كأس خمر ١١٠٠ .



إن فترة الغيبة التي يحدها السكر تعطل عمل العقل وتترك الشهوات ساقية دون قيد ، وتتيح الانطلاق الجرياني دون خوف على كرامة أو تهيب لسلطانها ..
وقد حكي الأديباء أن بدمية وفدت على بغداد ، وحضرت عرساً يشرب فيه المسكر ، فلما انتشت قالت : أين شرب هذا نساؤكم ؟ قالوا : بلى ! قالت : زين ورب الكعبة ١١٠٠

الحق أن تحريم الخمر حفاظ على الدين والشرف والمثلن والكرامة .. إلا أن الأوربيين مشوا في طريقهم ، فلما رأوا المخدرات سريعة التدمير للأمة حظروها بعنف ، ووجد تعاون عالي على مطاردة هذه المخدرات ، ومماقية تجارها ومتناولها ..
أما الخمر فقد ازداد الإحساس بضرارتها في الأيام الأخيرة وتوجد حكومات غير إسلامية تحرمها - كالهند مثلاً - لضرورات قومية ..

وفي العالمين الإسلامي والشيعي تنطلق الدعايات الصحية والاجتماعية للتنفير منها ، وإبراز مضارها ، فهل ذلك يكفي ؟ ..

إن الإسلام تآنى في إعلان حكمه على الخمر ، وإن كان من أول يوم ينظر إليها شراً ، ولم يقرر مهاجمتها إلا بعد أن أقام دعائم من الإيمان ، وروابط الأخلاق تعين على الخلاص منها ، فلما أصدر الحكم بعد هذا المهاد أريقت دنان الخمر في الأزقة ، ورسبت قريباً في المزابيل ..

أي إنه لابد من مقدمات نفسية وفكرية تسبق أو تساعد المظهر ..

وجمهور الأطباء والربيين والساسة والقواد العسكريين يكافحون السكرات في العهود الأخيرة ، وأظن أنه لا يمنع من عقاب شاربيها إلا الخوف من التشبيه بالإسلام ..

والفقه الإسلامي يفتح حثاً لتأرب الخمر قنوه ثمانون جلدة ، وليس لهذا الحد سند من الكتاب الكريم أو السنة المطهرة ، وإنما اتفق عليه جمهور الصحابة ، وأوصى به الدولة فتقدها ومن الفقهاء من يكفئ بأربعين جلدة ..

وفتهاؤنا مجمعون على أن من سكر من أي شراب نقذ فيه الحد ، وإن أخذ أي جرعة من الخمر أسكرت أم لم تسكر حرام ، وفيها العقوبة المقررة ..

٨١. التدخين عادة شائعة، فهل للدين رأى فيها؟

لم يكن التبغ موجوداً على عهد النبوة حتى يصدر فيه حكم، وليست له خصائص الإسكار التي لأنواع الخمر حتى يمكن إهلاكه بها، ومن ثم فإن الحكم له أو عليه يرتبط بالآثار التي يتركها في جسم الإنسان ..

ولم أتراً لأحد كلمة في أن للتدخين فائدة، بل إن جمهرة العقلاء من باحثين وأطباء أظالموا القول في أضرار التدخين، ويكاد إجماعهم يتعقد على أنه سم بطل ..

وقد طالعت عدداً من المجلة التي تصدرها منظمة الصحة العالمية عنوانه الواضح على الغلاف «التدخين نعمة والصحة نعمة والاختيار لك» ..

وفي المقال الأول من هذا العدد وردت هذه العبارات: «لقد انضمت العلاقة بين تدخين السجائر وطائفة من الأمراض المزمنة كما افصح أن نسبة الوفيات بين المدخنين أزيد كثيراً من نسبتها بين رافضي التدخين؛ ولعل أكثر الأمراض ارتباطاً بتدخين السجائر سرطان الرئة، والتهاب الشعب، وانتفاخ الرئة، وأمراض القلب الإسكيميا، وأمراض الأوعية الدموية؛ وترجع ٨٠٪ من الوفيات للزيادة إلى هذه العلل؛ وهناك أمراض أخرى أكثر شديداً بين المدخنين، هي سرطان الشفة واللسان والقولم والخنجرية والبلعوم والرئة والشلل؛ ويذكر حدوث قرحة الإثني عشر بين المدخنين أضعاف حدوثها بين غيرهم ... إلخ».

وقد تأملت في هذا الكلام طويلاً، ولم أستطع رده، ولكنني تساءلت: لماذا تبيد هذه النتائج ببطء حتى أن البعض يربأ فيها؟ وعلمت أن الخلق أبعث تكوين الجسم البشري، وأودع فيه مقادير شديدة للبلاد الهاجم؛ كان الجسم ثوب متين النسيج يمكن أن تحمل فيه الحديد والحجر دون أن يخترقاً؛ بيد أن كثرة الاستعمال، ستورن قدره يوماً فلا يتحملك أمام شيء يوضح فيه! ..

وبما ظن البعض أنه محصن ضد السوطات وضروب الأذى القوية بالتدخين - وليس لهذا الظن أساس علمي - لكن يبقى ما لا شك فيه، وهو أن التدخين

مضيف عام للصحة، وأن جهد المدخن أقل من جهد غيره، وأن الرائحة الودية للبيئة من التبغ المحترق تلوث القم والأصابع والملابس والجو المحيط بالمدخنين، بل إن رائحة التدخين قوية من النتن، ومن حق الشخص السوي أن ينفّر منها ..

وجمهور كبير من المدخنين ليس واسع الثراء حتى يحرق أمواله بلا مبالاة، لقد ظهر أن الأذوف المولدة من صرعى هذه المادة يحتاجون وتحتاج أسرهم إلى هذه النفقات الضائعة لتوفير الألبان والفواكه والأطعمة التي لاغنى عنها.

وقد رأيت الحكومات على المستوى الدولي أن تدق أجراس الخطر ضد التدخين، ولكنها اكتفت لأسباب - تضرب عن ذكرها - بإصقاف لافتة على كل عليه سجائر تشير إلى ضرر التدخين!

والمعده الذي بين يدي من مجلة الصحة العالمية يقول: «... بالرغم من تحول صناعة السجائر في البلدان الغنية إلى إنتاج سجائر تنخفض فيها نسبة القطران! وسجائر مزودة بالمرشحات والفلاتر فإن السجائر المصدرة إلى العالم الثالث عمومًا تحوى نسبة من القطران تزيد ثلاثة أو أربعة أمثال على ما يشابهها في البلدان المتقدمة!» ..

إن حياة السكان في العالم الثالث تافهة، ولا معنى للمحافظة على صحتهم! .. والحقيقة أن التدخين بدأ يقل في أغلب الأقطار الواعية، وأن طوائف كثيرة من المثقفين هجرته، وقد قرأت في مجلة الصحة العالمية المذكورة أنه تبين من دراسة أجريت على ٦٠٠,٠٠٠ طبيب بريطاني أن نصفهم كف عن التدخين بين عامي ١٩٥١ و ١٩٦٥، ونتيجة لذلك انخفض معدل الوفيات بين الأطباء ..

إن شركات التدخين العملاقة تجد ضحاياها في العالم الثالث، وقد ارتفعت نسبة التدخين بل نسبة السكر بين الألف المئوية في هذه الأقطار التبعية، وافتن المليون في اجتذاب الفراش القبيحة، فهذه امرأة أهموها أن التدخين يزيد جاذبيتها! وهذا عيّل أهموه أن التدخين رجولة! وهذا عامل أهموه أن التدخين يجعله فارساً لا يتقصه من مظاهر الغرورية إلا أن يتخطى صورة حصان، أو حماراً! وهذا امرؤ مستغرق في فكر عميق يحلم مع سحب الدخان المتعددة من سيجارة، ثم يحلم ١٩! أو قيم يفكر؟ في هراء وخدمة كبرى! ..

المملوك يخرج من بيته وانضمًا السجادة في فمه ، وبيته محتاج إلى بعض الضرورات ، وحسبه ذلك من مخايل الرجولة والتي يكثر يديه في ميازين المهر الحلال والحرام ، وهو يعلم أن أعداءه لا تحصى من المسلمين قتلهم الجفاف أو استحوذ عليهم التبشير فكفروا بعد إيماناً ..

وقد كنت أحياناً أنظر إلى العمال وإلى الفلاحين المائدين من الجزيرة والحليج ، فأعجب لا يحملون من هداياهم لقد أمروا عرقهم المبدول في أجهزة التليفزيون والفيديو ، وعادوا ليسهروا عليها مع الأصحاب ، مضيعين بسهرهم العشاء والفجر ويمتدّون بعدئذ نهاراً لا بركة فيه ولا إنتاج ..

لأنّ هذا الاستطرد - وما منه بد - ولا سأل : هل التدخين مباح ؟ إننى لا أقدر على الحكم بإباحته بعد ما قرأت عن أضراره المؤكدة ..

هل هو حرام ؟ قد يكون حراماً على بعض الناس وقد يكون مكروهاً عند البعض الآخر ..

والغريب أننى قرأت لامرأة مدخنة : أن رائحة التدخين أخف من رائحة القم الطيبى ! فأيقنت أنها هى أو بعلمها مرضى ! وأنهما يجب أن يذهبا إلى طبيب يشفيهما بدل أن يحكما بإباحة التدخين ، فقد قرر أطباء محترمون أن التدخين شديد الأضرار بالنساء ، وأنه قد يؤثر في صحة الجنين ..

إن الرائحة الجميلة من شماتة الإسلام ، سواء كانت في الجسم أو في اللابس ، والرجل الكريمة ينبغي ألا يخالط الناس ، فإن صلاة الجماعة تسقط عنه ، ولا أستطيع القول بأن رائحة الدخان حسنة !! ..

إن التواطؤ على استغلال العالم الثالث بلغ حد الفجور في الاستخفاف والاستغلال ، فقد كتب محرر جريدة «الرياض» تحت عنوان «عقائير الموت» هذا الخبر : أجرى فريق من علماء جامعة وكليفرنيا دراسة خلال السنوات العشر الماضية في أكثر من عشرين بلداً من بلدان العالم الثامن ، ثم خلالها تحليل نحو ٥٠٠ دواء وعقار من اللورصات الصيدلية التي تنتجها ١٥٥ شركة عالمية وتصدرها إلى أقطاراً لم أصلورت الجامعة نتيجة هذه الدراسة في كتاب نشره بعنوان «وصفات الموت في العقائير المردة لبلاد العالم الثالث» ..

وتؤكد النتائج أن بعضاً من كبريات الشركات العالمية ذات الكائنة المرموقة في إنتاج الأدوية والعقاقير الطبية ، تسوق منتجاتها في أقطار العالم الثالث بوسائل من الإعلانات المكثورة والدعايات القاتمة على الغش والرشوة والظلم ، وتتقاضى هذه الشركات عن ذكر الأعراض الجانبية للأدوية التي تبيعها ، والمضاعفات الخطيرة التي تنشأ عن منتجاتها ، وكثيراً ما تكون لها عواقب وخيمة وبيئة ..

وأشارت الدراسات إلى أن أربع شركات وحسب من الشركات الـ ١٥٥ هي التي تلتزم بأمانة العمل وأخلاقياته ، وذكرت أن الأدوية المروضة تتنوع بين علاجات للصداع والحمى ومهدئات وبين مضادات حيوية ، أو حبوب منع الحمل ..

قال المحرر : وما أننا من أبناء العالم الثالث فإن أسواقنا سوف تبقى مجالاً لهذه الأنشطة المسمومة ، وسوف تبقى مستهلكة لتأدير ضخمة من أدوية الطالاح فيها أضعاف المصالح ..

الحقيقة أن الأمم الغربية لاتعدنا بشراً مثلهم ، وأنهم ينظرون إلينا باستهانة أو بازدراء .. إن كلمات الشرف والاستعفاف والأمانة ملغاة في معاملتنا ونحن المسؤولون عن هذا السلوك الحقير ..

ومن دعاء الناس إلى ذممة ذمونه بالحق والباطل !
إن قدراً كبيراً من الأموال العربية يذهب في مطالب الشرف ومظاهر الترف التي تسيطر على الخاصة والعامة ! ..

والغريبون يعلمون أن تقاليد الرياء الاجتماعية هي التي تحكمنا ، ونحن هذا الطريق يستنزفون ثرواتنا ..

وقد رأينا القرآن الكريم يعد أولئك الكهنة الباطن هم السبب في كفر الناس، ويعتبر مسلكتهم صداماً عن سبيل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْيَارِ وَالرُّهْيَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَعْبُدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الدَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١)

والكلام في الزكاة فرع تنقيح المطابع من الشح، وغرس الأخوة الصحابة للتراحمة المتكاملة ..

وقبل أن أعطي أحداً من ملهى أنا باسم الزكاة يجب أن أضمن للكادح ثمن عرقه ، وجزاء سعيه ..

لقد رأيت قاعدتين يشتركون الآخرين في رحمتهم تحت عناوين ما أنزل الله بها من سلطاناً رأيت الأعرابي يكفل عشرة من الناس ليستولى على نصف رواتبهم جميعاً والإسلام يرى من هذا الجشع والفساد ..

إن دور الزكاة يحيى بعد إرساء قواعد الجلال والحرام ، فإذا حدثت ثغرات في المجتمع بعد تسييره وفق سنن عائلية فإن الزكاة تحسح الآلام ، وتشر الرحمة والوثام ، إن الزكاة طهارة نفسية واجتماعية قبل أن تكون مساعدات مادية ﴿وَخُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢)

لم أعرف نظاماً دينياً في الآلات والآخرين اهتم بالزكاة والصدقة مثلما اهتم الإسلام ، وفي كتاب الله وسنة رسوله آيات وحكم تحس معها كيف يريد الإسلام تعميم الخير وإشاعة النعمة ومطاردة الجشاع والفساد ، وجعل بسمة لرضا يسطيع بها كل ضم ..

من قديم والناس يكرهون استخراج المال من خيراتهم ، ويرون لو بقي لهم وحدهم ، بيد أن الإسلام يقاوم هذه الرغبة ، ويكسر حدودها ، وإذا احتاج الأمر إلى مقاتلة أصحابها أعلن عليهم الحرب حتى يفتشوا إلى أمر الله ، وهكذا فعل الخليفة الأول ، فهل يتكرر ما فعل ؟ ..

عن الأحنف بن قيس قال : كنت في نفر من نفر من قريش فمر أبو ذر رضي الله عنه وهو يقول : يا بشر الكافرين يرضف بعضهم في نوح جهنم ، فيوضع على حصة ثديا أحدهم (١) التوبة : ٣٤ . (٢) التوبة : ١٠٣ .

٨٢. ما حكمه الزكاة ؟ وما نصاهايا ؟

المخل عاقله قديرة في الطبيعة البشرية ، ترجع إلى حب المراء لنفسه وحرصه على مصلحته ، وارتياقه في المستقبل ارتياها بغيره بالأدخال ، والجمع بعد الجميع . والذين لا ينفق للمراء نفسه ولا يزعمه في مصالحها ، ولكنه يرفض أن يتحول ذلك إلى تجاهل للآخرين ، وفقدان للشعور بوجودهم وحقوقهم ولعل ذلك هو الفارق بين الإنسان والحيوانا ..

فالحيوان ما يتحرك إلا وفق قوانين اللذة والألم ، إنه يستقل من أجل قوته أو قوت صفاره الذين هم امتداد له ، ولعلم في عينه لا يتجاوز هذا النطاق .. والإنسان القريب من الحيوان يصبح رئيس محصوراً في مآربه ومطالبه ، لا يفكر أبعد من ذلك فليحي هو ولتتم الدنيا كلها بعدئذ .

وقد جاء الإسلام فخلع اللرد من هذه الآثرة ، وجعله جزءاً من كيان مشترك أو جسد واحد ، وأقنعه أن الإيمان يقتضي محبة الآخرين والرحمة بهم ، واحترام مصالحهم ، وقد يقتضي الإتيار والمطاء للبرأ من المن .

قال تعالى : ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١) وقال : ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (٢) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (٣) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى (٤) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ (٥)

وعند التأمل نجد أن حب المراء لنفسه ونسيانه لغيره يكمن وراء تشبعه مع جوع الآخرين ، وتطلعه إلى مزيد مع فقدان غيره للضرورات الماسة ولم أعرف شيئاً يورث الضغائن كهذا الضغائر ، إنه يحول الجماعة البشرية إلى طغيح متوحشا ..

ومحنة الدين في المجتمعات التي تحولت إلى الماركسية أنت من ذلك الضغائر الظالم ، والشوار ما كانوا حاقدين على الوجود الإلهي قدي ما كانوا ضائقين ببطنة الكهان ورسنية البابسين ..

(١) لقمان : ١٦ .

(٢) لقمان : ١٦ .

(٣) لقمان : ١٦ .

(٤) لقمان : ١٦ .

(٥) لقمان : ١٦ .

المحصولات السهلة. واختار في الأراضي الزراعية المستأجرة أن تكون الزكاة بين المالك والمستأجر، كما اختار القول بأن الزكاة في جميع ما يخرج من الأرض من حبوب وفواكه وثمار.

وقد جلت في ميادين المال أشياء تقتضي النظر في أحكام الزكاة للثروة، فإن القواعد التي درسناها تجعل الوزير مثلاً لا يخرج زكاة عن مرتبه الذي يتفق في بيته، مادامت النفقة تستغرقها على حين توجب الزكاة على فلاح تزرع فدان شعير، وتطالبه بحق الفقير يوم الحصاد كما أن أغلب الفقهاء القدامى لا يأخذون زكاة من فدان فاكهة بل ألف جنيه، ويأخذونها من فدان يدر ربع هذه القيمة.

وقد لفت نظر من أربعمائة سنة في أول كتاب الفقه إلى هذا التفاوت الكبير، وتحدث عما أسميته زكاة المال وزكاة للدخل، وقد كان ذلك إشارة محدودة إلى ما يجب عمله، لا سيما أن الزكاة ليست عبادة محضة يستحيل فيها التغيير، بل هي عبادة مربوطة بحكمة، وترتب عليها مصالح متعددة.

ثم جاء الشيخ يوسف القرضاوي فوضع كتابه فقه الزكاة الذي قلت: إنه أهم كتاب ألف في هذا الركن الإسلامي منذ بدأ تاريخنا الثقافي.

والواقع أنه يجب أن تقوم على عجل لجنة من الفقهاء والاقتصاديين لترجم المصطلحات القديمة إلى مفاهيمها الحديثة، فبين كم تساوى عشرون مثقالاً من ذهب، ومثلاً درهم من النفضة وخمسة أوق من الحبوب، وماذا يتركه النضخ من آثار في قيم الأفضية؟

إن الزكاة عمل رائع في ديننا العظيم، وقد حسنت المجتمع الإسلامي من زلزال دكت غيره، ولكن الأمر يحتاج إلى مزيد من الدرس والتطبيق الواعي، ونضبط الملتوق العلومة، وإصالتها إلى أصحابها بأشرف أسلوب.



حتى يخرج من نفق كشفه أعلاه ويوضع على نفق كشفه حتى يخرج من حلقه لديه، يتركون موضع التورم وسهم فماريات أحد أمتهم رجع إليه شيئاً فادبر، فابعثه حتى جلس إلى سارية، فلقته ماريت فو لاء لا كرهوا ما قلت لهما فقال: إن هؤلاء لا يعقلون شيئاً إن خليلي أبا القاسم وعرض فاجبت، فقال: أترى أحد ألقى فادراً فقال: ما يسرنى أن لي مثله فحبا لنفقه كله إلا ثلاثة ذلير! ثم هؤلاء يجمعون الدنيا لا يعقلون شيئاً.

وقد جاءت عن أبي خرواية أخرى تفسر ما نقلناه هنا قال: التفتيت إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في ظل الكعبة فلما رأي قال: هم الآخرون ورب الكعبة، قلت: يا رسول الله فذاك أبي وأمي، من هم قل: هم الآخرون أموالي إلا من قل هكذا وهكذا ثلاث مرات من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، وأقبل ما هم من صاحب بل ولا يقرو ولا غم لا يؤدى زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كنت وأسعته، تنطقه بقرورها، وتنفذه بأطلائها، كلما نذرت آخرها عادت إليها ولا عا حتى يقضى بين الناس.

وهذا الحديث يفيد إخراج الملتوق العلومة، والشيظ إلى كل خلل يقع في المجتمع والساعة إلى سلمه، وهو ما قاله الله سبحانه: **لَمَّا الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** (١).

وهذا الإنفاق المطلوب لا يعني أبداً أن يظل المرء يتفق حتى يفلس، ويصبح مساكناً لمن كان يعطيهم؛ فهنا فهم سخي، وإنما القصد قهر البخيل وإحسان المراساة عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: جاء رجل يعطل يمسك من ذهب، فقال: يا رسول الله، أصبحت هذه من معدن فخذها فهي صدقة، ما أمك غير هذا، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، ثم أتاه من قبل ركنه الأيمن فقال مثل ذلك، فأعرض عنه، فأتاه من قبل ركنه الأيسر فقال مثل ذلك، فأعرض عنه، ثم أتاه من خلفه فقال مثل ذلك فآخذها ﷺ فخذها بها فلو أصابته لا وجته، وقال: يا بني أحدكم يما يملك فيقول: هذه صدقة! ثم يقعد يتكفف الناس! خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى.

وإنا شرحنا هذه القضية لأن البعض نسب إلى أبي خرواية يحرم الكثير، وأمر بالنفقة حتى لا يبقى شيء.

هناك حق معلوم قدر في السنة الشريفة ببيع العشر في الأموال المدخنة وعروض التجارة، ونصف العشر في المحاصيل التي يتكلف فيها أصحابها، وبالعشر في

٥.٨٣ ما العلاقة بين الإسراء ونبي إسرائيل؟

ليس من قبيل المصادفات المعارضة أن تروى آية قلعة قصة الإسراء، ثم ينتقل السياق بغتة إلى تاريخ بني إسرائيل. وليس من قبيل المصادفات المعارضة أن تسمى سورة الإسراء في بعض النسخ سورة بني إسرائيل^(١).

بل أقول: إنه ليس من المصادفات المعارضة أن يدخل صلاح الدين البيت المقدس، ويسترده من الصليبيين في السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ هـ بعد أن لبث في أيديهم قرابة قرن: كان الأقدار جعلت عودة المسجد الأقصى إلى المسلمين في ذكرى احتفالهم بالإسراء إشارة إلى أن المسجد الذي ورثه الإسلام يجب أن يبقى له، وأن العلاقة بين أولى الصليبيين وآخرها لاتنقسم، وأنه لا الصليبية قديماً ولا الصهيونية حديثاً ستييران سنن الله في مصائر الأمم، وإن نجحت كلأهما إلى حين في إبطاء هزيمة بالمسلمين.

ونعود إلى ما بدأنا به كلامنا ..

قال الله تعالى:

﴿سَيَحْنُ الَّذِي أُسْرِيَ بَعْدَهُ نَبِيًّا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّبِيحُ الْبَقِيحُ﴾^(٢)

وعقب هذه الآية مباشرة نقرا قوله تعالى:

﴿وَأَنبِئْهُمْ نَبَأَ الَّذِي أُسْرِيَ فَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٣)

ما العلاقة بين الإسراء، وإزالة التوراة وتاريخ اليهود، ثم حكاية مفاسدهم والتعليق عليها، وتبصير المسلمين بعواقبها؟

إن الإسراء كان من مكة إلى القدس. وللمهود في هذه البقاع تاريخاً ... صحيح أنه لم يكن لهم وجود في فلسطين يوم زحف الإسراء، بل كان وجودهم في فلسطين محظوراً، لكن وجودهم السابق لا ريب فيه.

(١) الإسراء: ١٠. (٢) الإسراء: ١٠. (٣) الإسراء: ١٠.

وانتهاء هذا الوجود ثم حظره يحتاج إلى تفسير، وهو ما أشارت إليه الآية وما بعدما في صدر سورة الإسراء، وهو ما أريد الآن متابعته من الناحية التاريخية ..

كان الكنعانيون يسكنون فلسطين قديماً وهم سلالات عربية كانوا توأمتهم العمانيين والقمطانيين، ويظهر أنهم تحيروا، وأثأروا العرب حيث يعيشون، وأراد الله تأديبهم على مفاسدهم، فسلط عليهم بني إسرائيل. وقد وحل الإسرائيليون أيام موسى من التعرض للكنعانيين، وطلبهم الجبن، ورفضوا الزحف إلى فلسطين فالتزم موسى: ﴿إِنْ فِيهَا قَوْمٌ جَارِبِينَ وَإِنِّي لَأَذْلُكُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾^(١). فلما ألح عليهم قالوا مرة أخرى: ﴿لَنْ نَذْلُكُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾^(٢).

وعوقب الإسرائيليون على جنتهم بالتيه في سيناء أربعين سنة مات خلالها موسى، ثم خلفه يوشع الذي قاد بني إسرائيل إلى فلسطين منتصراً على الكنعانيين، وبأياً حكماً دينياً باسم التوراة بعد هزيمة أعورب^(٣).

يبد أن اليهود لم يلبثوا طويلاً حتى نجحت بينهم على خلقية واجتماعية بالغة السوء، زادوا بها شراً على من كان قبلهم! وقد حكموا عن أنفسهم، وحكى القرآن عنهم ما يستحق التأمل، فقد اتفقوا رفاقاً جعلت القدر يحكم بطردهم من فلسطين قسر طرقة، وبما أن السلطة في يدهم تعين على الاقتواء والاعتداء إلى حد بعيد، فليسوا له بأهل ... ينبغي تحريمهم منها!

وكانت فلسطين - حتى بعد قدوم اليهود - مليئة بأجناس أخرى، وكان المسلك المستحب لبني إسرائيل تحقير هذه الأجناس ولشيل منها بأسلوب غريباً فقد زعموا أن «اليعسميين» من أصل لا يمكن أبداً أن يرتفع، كيف، قالوا: إنهم سلالة قلوطة لا سكر وزنى بنة! ... وكتبوا ذلك في سفر التكوين!

والقصة يقينا مكثورة، فأنبأه الله لا يسكرون ولا يزنون!

ثم جاءوا إلى الكنعانيين العرب ووصفهم بأنهم كلاباً وقد امتد هذا الوصف حتى ذكر في العهد الجديد، فقد لقيت امرأة كنعانية عيسى وهو يدعو في بيت المقدس، وصاحت به: يا سيد يا ابن داود، ببقى مريضة جداً ...

وظليت منه شفاءها!

(١) التثنية: ٢٢. (٢) التثنية: ٢٤. (٣) التثنية: ٢٤.

ثم كان دخولهم بيت المقدس أيام صلاح الدين آية من آيات المساحة والمعجز والرحمة ..

أما الأمة العبرية فقد خلعت لنفسها طريقاً آخر ، لقد هبت على اليهود عاصفة غضب بعشرتهم في أرجاء الأرض ، فتوزعتهم الملائك والقرى في المشارق والمغرب . بيد أنهم حيث ذهبوا كان لهم فكر واحد ونتيج ملحوظ ، يزعمون أنهم شعب الله المختار ، ومع هذا الزعم فإنهم نسبوا إلى الله ما لا يليق بجلاله ، ونسبوا إلى رسله ما لا يليق بشرفهم ، واستباحوا لأنفسهم الربا وأكل مال الناس بالباطل ..

وتفوقوا في حاراتهم يحلمون بالعودة إلى الأرض التي طردوا منها بسوء خلقهم مع الله والناس ..

والغرب أنهم جعلوا آمالهم هذه وحياً يتلى ، وأودعوها صحائف كتبهم وكان الله هو الذي أزلها عليهم !! .. وقد تضائق الصغاري من مزاعمهم وأعمالهم لا سيما أنهم هم الذين سموا في قتل عيسى ! ..

وإذا كنا على عكس الصغاري نعتقد أن عيسى نجا من مؤامرتهم فاقوم على أية حال قتلة بضائهم . ومن ثم شرع للصغاري حكماً وضوياً في اضطهادهم ولخاص حماهم .. وعرضت لهم من في انحاء أوروبا كانت تنتهي بأنائهم حتى قال نقر من الموزجيين : لولا ظهور الإسلام لفتى اليهود أنهم وجدوا في أرضهم المسيحية وساحتها المعتدة ما بقي حياتهم !!

ومن الموزجيين من يرى اليهود مسئولين عما تولى بهم من الآم ، فأثرتهم الشديدة ، وشرفهم في حب نال ، وقلة اكتراثهم بقضايا الشعوب التي عاشوا بين ظهرانيها كل ذلك جعل القريب تنطوي على بغضهم . وقد كان «عذرا» الحلقة الأخيرة في سلسلة طويبة من احكام الذين أخذوهم في ضول أوروبا وعرضها ..

وسرت المستوث بغيلة طويبة ، وظهرت الخلاق المستورة ، أو نبئت ونفصحت البثور الكامنة !! ..

كان المسلمون يعفون في نوم عميق ، وكانت الدنيا من حولهم تتحرك بحقد مشوب وطلب بثارات قديمة .

كان يطو للمسلمين أن يتحدثوا عن الرحلة الجبرية بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى وسدرة المنتهى ! ولا بأس أن يقولوا شعراً ونثراً .. أما الدرس الواقعي للأمم

فقال لها : انهم يا امرأة فأن طعام البنين لا يرمى للكلاب . يعنى بالبنين : بنى إسرائيل ، والكلاب : الكنعانيين ..

فقلت لغزوة : والكلاب أيضاً تأكل أقلام السادة فتغني لها ابتها بعد هذه الفصاحة للذليلة ..

وبنن نجزم بأن الإنسان الرقيق للرحيم عيسى بن مريم يستحيل أن يسلك هذا المسلك ، أو يرسل هذه الشتائم لكنهم اليهود الذين تخصصوا في تحريج الانبياء وإهانة الشعوب ومن ثم نهم قول القرآن فيهم :

﴿ أَوَلَيْكَ الَّذِينَ جِئْتَ أَغْمَالَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ (١)

أيكنى في معاقبة بنى إسرائيل أن يطردوا من فلسطين ؟ ..

لا .. إن الله عزلهم نهائياً عن العبادة الدينية التي كانت لهم ، وحرمهم من الوحي وشرف إبلاعه ، واصطفى الأمة العبرية لتقوم بهذه الأمانة ، وكانت لبنة الإسراء والمعراج لتصدق الملمس لهذا التعول . فقد انتقلت الرسالة من بنى إسرائيل إلى بنى إسمايل ، وأصبحت الأمة للعبرية لا للعبرية هي الوارثة لهبايات السماء ..

وبنن الإسلام بالعرب نهضة رائعة ، وجعل منهم حملة حضارة وأهية ، وفوتج العالم بالامة التي لم تعرف إلا رعى النفس وتغل السلع ، تتلو من كتابها أصبح المعاند وأحكم التراجع وأثرف التعاليد ..

كان دويد بن الصمة يعف نفسه وقومه وعلاقة العرب بعضهم ببعض فيقول :

يفسر علينا وأثرين فيشتفي
بسان أصينا أو تغير على وتر

فصا من هذا المهر شطرين بيتنا
فصا ينقضي إلا ونعن على شططر

وما هم العرب بالإسلام يعلمون الناس المساحة والأخوة والتعاون على البر والتقوى حتى قال دصناف لوزن : إن العالم لم يعرف فاصحارهم من العرب !! ..

وكان دخول المسلمين بيت المقدس أيام عمر بن الخطاب آية من آيات التواضع لله والبر بالناس ..

الله لا محول : ٢٢ .

التي توارثت فلسطين ، وأسرار ازدهارها واندثارها فقلما يفكرون في ذلك . وربما لا يخطر لهم ببال أن هذه الأم تفكر في العودة ، وتحسن استغلال الفرص ..
فلما جاء العصر الحديث انكشف الغطاء عن مفارقات مذهلة . انكشف عن تعصب يهودي شديد النض ، وعن تأييد حار له من رجال الكنيسة وأغلب الساسة .. أما العرب فقد قيل لهم : احملوا بإنسانية عامة متجردة عن الهوى ، توارثكم في الحافل الدولية ، وتندل بينكم وبين خصوصكم !! ..
واستكان لنوام الأحلام فما صحوا إلا على المنايع تحصلهم رجالاً ونساء ، ولتسميم يحتاج الطلاب والطالبات ، والنيوم تسد الأفاق كلها أمام مستقبل معقول .
ما الذي حدث؟ ..

ندع الجواب لغيرنا ! ..

ندعه لخصومتنا وتندبر مايقولون ..

كتب «حاييم وايزمان» في مذكراته يقول لقومه : تحسبون أن لورد «بلفور» كان يحاينا عندما منحنا الوعد بإنشاء وطن قومي لنا في فلسطين؟ .. كلا ، إن الرجل كان يستجيب لمطامنة دينية يتجاوب بها مع تعاليم العهد القديم !! ..

... وندع «وايزمان» و «بلفور» ، وتندبر تصريحات مستر «كارتر» ومن بعده ..

إنهم جميعها يتحدثون مع «بيجن» عن أرض الميعاد ، وعن نبوءات التوراة والحدود التي رسمتها ! ..

إن المشاعر الدينية الفائرة في العقل الباطن والظاهر هي التي جعلت جنرال «جيرو» يقول في دمشق أمام قبر صلاح الدين : ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين ..

وهي نفسها التي جعلت مارشال «الني» يدخل القدس في الحرب العالمية الأولى ويقول : الآن انتهت الحروب الصليبية .

يظهر أن العالم كله شديد الإحساس بعقائده وأمله الدينية إلا قوتنا وحدهم ، فإنهم يتذكرون بينهم أن الدين رجعية !! ..

إن قضية بيت القدس وفلسطين منذ فجر التاريخ إلى قيام الساعة قضية دينية عند أصحاب الرسالات السماوية جميعاً ، فكيف يتجرأ البعض على جعلها قضية قومية أو اقتصادية؟ ..

المسلمون يرون المسجد الأقصى يذكر في سياق واحد مع المسجد الحرام والمسجد النبوي ، ويرون الدفاع عنه جزءاً من الإيمان ، ويعترضون باسم الله ورسوله جهود اليهود لهدمه وإقامة الهيكل فوقه ويعلمون هذه الجهود جريمة ضد الإسلام والألف مليون مسلم الذين يمتلكونها فكيف يتجاهل هذا؟ ..
والنصارى يرون بيت المقدس قبائهم ، وبه قبر المسيح ، وقد جعلوا مفاتيح كنيسة القيامة بأيدي المسلمين لأنهم آمناء عليها ، وحماة لها ، ولرفع النزاع الطائفي بينهم على حيازتها .

واليهود يرون أن هذه الأرض منحها الله لإبراهيم الخليل وفريته من بعده وزعموا أنهم هم النرية المعنية (!) وأن طردهم منها لمصيبتهم وقتلهم الأنبياء لا يمنع من العودة إليها وطرد العرب منها ! ..

فإذا كان الدين وراء كل دعوى ، فكيف جاء من أسماؤهم أنفسهم العرويين ، وجردوا العرب من ولائهم الإسلامي ، وأغروهم بجعل القضية صراعاً جنسياً أو نزاعاً «إمبريالياً» وغير ذلك من الأوصاف المكدوبة؟ ..

وعندما يفقد صاحب البيت عاطفته الدينية ويهجم اللص بهذه العاطفة المهتاجة فماذا تكون النتيجة؟ ..

إن اليهود اغتصبوا نصف مسجد الخليل ، ويتآمرون على اغتصاب بقية ، والأخبار تترى - وأنا أكتب هذه السطور - إن مساجد شتى في يافا وعكا نسفت ، وإن ترويع الطلاب العرب في مدارسهم بمحاولات التسميم مستمر حتى يترك العرب الضفة الغربية ، وتضاع غزة ، أو كما يعبر اليهود «يهودا أو السامرة» أحياء لعناوين التوراة .

إننى أتساءل : ماذا وراء تجريد فلسطين من صيغتها الإسلامية إلا الضياع؟ ..

نحن نعتلى بالبقعة التي انتهى إليها الأسراء ، وبنا منها المعراج ، ونريد أن يسأل العرب أنفسهم : لماذا لم يكن المعراج من المسجد الحرام إلى سدرة المنتهى مباشرة؟ إن الإجابة تعرف من الآيات التي أعقبت قصة «الأسراء» في سورتها المباركة ، كما تعرف من دراسة التاريخ القديم والوسيط والحديث ..

في هذه الأرض قامت رسالات وانتهت ، وفيها نهضت دويل وتلاشت ..

ثم ورت المسلمون بيت المقدس باسم الله ..

٨٤. ماذا كانت قبلة العالم في أرضنا ؟

قبل بضعة أسابيع من معركة بدر وقع حدث دلالة العميقة في صلة المسلمين بأهل الكتاب . فقد كان بيت المقدس القبلة التي يتجه إليها أصحاب الأديان المساروة جميعاً .

ثم صدر الأمر إلى المسلمين أن يتحولوا من بيت المقدس إلى مكة المكرمة .. ما سر هذا التحول ؟ ..

الواقع أن أهل الكتاب ما كانوا سعداء بالدين الجديد ولا فهموا من وحدة القبلة أن قرابة مشتركة تربطهم باتباعه !

الذي حدث أنهم ضاقوا أشد الضيق بالنبى العربي ، وعدوه منافسا محلورياً كان الأمر صراع على مقنم عاجل ، أو طرب قريباً

ولو كان أهل الكتاب مخلصين لأديانهم لكان لهم موقف آخر ، فإن العرب كانوا عباد أصنام حتى عرفهم محمد بالإله الواحد . وكانوا يمشون ليومهم حتى أقنعهم بالعمل لليوم الآخر . وكانوا لا يدرون شيئاً من نبوة سبقت حتى حدثهم عن موسى وعيسى وغيرهما من الرسلين ..

فلم الضيق بهذه الرسالة ؟ ومخاصمة صاحبها ؟ ..

يبد أن الأمر تجاوز الخصومة المحتملة إلى ضرب من اللدد يشير الاشتراز . للبر

قوله تعالى :

لقد ورد كثير من أهل الكتاب ليردوكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم أنهم فاتقوا واصفوا حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شيء قدير (١)

وإذا كانت "المسلمين" مساجد تبعث من مآثرها صيحات التوحيد وتستقبل ساحاتها الركع السجود ، فإن أهل الكتاب تواصوا بعروق الناس عن هذه المساجد ،

(١) البقرة : ١٠٩

ولو أنك تولت أسوار أمينا لآخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجريين لاطنت أنك تقرا أحوال المسلمين في هذه الأيام المجافا ..

إن العمليين القدامى تقدموا في فراع :

كانت لفارقة بين العرب والثاقسة على السلطة هي الأسلحة التي مزينا بها أعدائنا ، ولو اشتبك المسلمون مع الهاجمين في أية معركة جادة ما سقطت فلسطين ..

وكان التاريخ يعيد نفسه ، إن الصهيونيين تقدموا في الفراغ نفسه !

أعانتهم الفرقة ، والشبهوات المطاعة ، والمغائد المحلة ، والأثابة الطاغية ، فكسبوا موركهم بأيدينا ..

أريد - كلما استقبلنا ذكرى الإسراء - أن نتجاوز الهامش إلى الصميم .. أن نترك السرد السطحي للقضية ..

إن نغمق النظر في الأسباب التي من أجلها كان الإسراء .. ولاجلها قامت للعرب دولة تحمل الرسالة الإسلامية ، ونضج الموازين القسط بين الناس .

إن الكمال البشري لا يضمنه استئصال مكان هنا أو مكان هناك ! الكمال للنشوء
عمل حقيقى داخل النفس الإنسانية ، هي اليقين المراسخ والاستتمساك بالله ، وإن حاجت
المواظبة الإنسانية ، هي اليقين المراسخ والاستتمساك بالله ، وإن حاجت
المواظبة الإنسانية ، هي اليقين المراسخ والاستتمساك بالله ، وإن حاجت

وهي اليقين على اليقين وإن كرت الثمرات ، ولغنى على الجهاد وإن فدحت للثمار ..
إن الجهاد المسلمين إلى المسجد الحرام في صلواتهم حتى لا ينجس فيه ، وهي قضية
تنظيمية مستشرح بعد قليل أبعادها ، بيد أن تلك لا يبنى نسيان الحقيقة في الوصول
إلى الكمال الإنسانى والرفوفان الإلهى ، وتبشر قوله تبارك اسمه :

« ليس البر أن تولدوا أو تموتوا أو تجوزوا ، ولكن البر من آمن بالله
واليوم الآخر والملائكة والكتب ، والنبين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى
والسائلين وآتى السبل » والسائلين وفي الرقاب وآقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون
بعهدهم إذا عاهدوا والمصابرين في البأساء والضراء ورحم البناس أولئك الذين
صدقوا وأولئك هم الصقرون (١) ..

إن اليهود ينقسمون الشرف من الاتساق إلى نوى الله يعقربا والاب العظيم
لا يرفع شأن بينه إذا كانت أعمالهم هابطا وهم يرتبطون بالقدس والأرض المقدسة ،
والأرض لا تقس أحدا ، إنما يتركز البرء بالهدى والتقى والمغاف والمعدلة .

والخلافة بين الناس باق إلى قيام الساعة ، إنه جزء من طبيعة الحياة ، وهو بعض
الحكمة في خلق الناس ..

لكن الخلاف مهما اتسمت شقته لا يجوز أن يكون مثار عدوان وتظالم ، ولا يجوز
أن يجعل الخيف حقا . ومن ثم قال الله لنبيه :

« ولئن آتيت الذين أنذرتهم الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبيلتهم
وما بعضهم بتابع قبلك بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم أنك إذا
لن الظالمين (٢) »

والجملة الأخيرة في الآية الكريمة تشير إلى خصائص امتنا ، وإلى الرسالة التي
كلفت بحملها إلى آخر الدهر ..

(٢) البقرة: ١٤٥ .

(١) البقرة: ١٧٧ .

وتأمروا على تهاديها ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسئل
في خرابها (١) »

فلم يتق بعدد مسالخ لشراكة هؤلاء الحاقدين قبلتهم ، وانبعشت في نفس
الرسول الكريم الرغبة في الاتجاه إلى القبلة الأولى ، إلى الكعبة التي بنانا جده
الأكبر إبراهيم الخليل ، ولكنه لا يستطيع ذلك إلا بإذن من الله ، فليستظر ، وليؤمرا .
ثم جاء - على تلفظ وشوق - الأمر الإلهى ﴿ قد نرى قلبك وجهك في السماء
فلتركتك قبلة ترضاه فوال وجهك شطر المسجد الحرام (٢) » . فاتجه المسلمون إلى
الكعبة المشرفة بعد قرابة سبعة عشر شهرا من الصلاة إلى بيت المقدس .

كانت هذه الملة كافية لفصح ضماني اليهود ، وأثرتهم المروطة ، وشتمهم أن الدين
مؤسسة احتكارية يديرها حكماء صهيون المسلحة جنس من الأجلس ، إنهم
لا يفهمون ولا يريدون أن يفهموا أن الدين علاقة سمحة رحبة بين الناس ولرب الناس .
وقد بدا لي من تجارب كثيرة أن المتاجرين بالحق قد يكونون شرا من المخدوعين
بالباطل ، وأن العرب الأميين كانوا - ببقاء سرائرهم - أصلح للحياة والإحياء من
أهل الكتاب المتكبرين الشرهين ..

كان أولئك العرب يعجزون بكعبتهم ، ويرغزون طوال عمرهم في استقبالها ، وهم
لم يتسوا أن الله حماتها عندما أراد نصارى الحبشة هدمها وأن قوى السماء هي
التي تعدت للمفجرين لا عجز أهل الأرض عن الدفاع ، فإذا الجيش المتحدى يلقى
﴿ طيرا أبابيل (٣) ترثيهم بحجارة من سجيل (٤) فجعلهم كعصف ماكول (٥) » ..

مع ما كان للمسجد الحرام من هذه المكانة الوطيدة ، فإن الصحابة قبلوا عن
طيب خاطر ترك استقباله لا هاجروا ، ولربوا أمر الله باستقبال بيت المقدس .

كان استحسانا صعبا غير أنهم تحموا فيه : ﴿ وما جعل القبلة التي كُت عليها إلا لنطم
من يتبع الرسول من ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله (٦) »

وعندما يحتدم النقاش حول القبلة التي يتوجه للناس إليها ، يذكر الإسلام
حقائق رقيقة ، يلقبها في مصامح كل من يتسبون في دين حقائق لا يقرها إلا
الإسلام وحده إنه يتساءل : ما هذا المنعط حول الاتجاه إلى شمال أو جنوب ؟ ..

(٤) البقرة: ١٤٣ .

(٣) القصص: ٢٠ - ٢١ .

(٢) البقرة: ١٤٤ .

(١) البقرة: ١٧٤ .

إن رباط العروبة بالإسلام وثيق ، وهذا الرباط وحده هو الذى يجعل العرب أمة قائمة قائمة فأما ومنت صلتها به ، فهي تتكون أساسا وتوحدا ، وهي يستحيل جنما من رأس إلى ذنبها أو من أمة تدفع غيرها نحو الخير ، إلى أمة يمحرجها الآخرون إلى الشر أو إلى المأوياً .

وقد تأكد هذا المعنى مرة أخرى فى سياق تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام وذلك فى قوله تعالى :

﴿ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا إليه ﴾

ووجهكم شطرة قبلة يكون للناس عليكم حجة ﴿ (١) .

أى حتى تنقطع حجج العرب الحرامين على كعبتهم الضالين بالاتجاه السابق إلى بيت المقدس ! أما أهل المعاد والمشيون بالجاهلية الأولى ، فلا تغفلوهم ، فأعرضهم إلى إبدار ونارهم إلى رساء ... ﴿ إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشروهم واخشوني ولأنهم يفتي عليكم ولعلكم تهتدون ﴾ (٢) .

أى إن الله باختياره للمجد الحرام قبلة لكل معمل فى الدنيا ، يضاعف على العرب منته ، ويتم عليهم نعمته ... وقد بدأ الإنعام عليهم بانبعاث الرسول منهم ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يقول عليكم أن لا تغفروا الله حقه وليقدروه والطرفة الماضية ، ويخطون معلم الحكمة والرشيد ، فليعرفوا الله حقه وليقدروه قدره ﴾ ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ (٣) وهكذا يخاطب الله العرب ويشرح لهم ما أسدى إليهم من جميل ! فهل تذكر وتشكر ؟ ؟

والمنى أن العرب بهذا الدين أضحي لهم تاريخ جديد ، وافتتحوا به صفحة مجد بافتح ما كان لهم به عهد من قبل ، ذلك أنهم يتلون آيات الحق ، ويهدون طريق التوبة الماضية ، ويخطون معلم الحكمة والرشيد ، فليعرفوا الله حقه وليقدروه قدره ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ (٤) وهكذا يخاطب الله العرب ويشرح لهم ما أسدى إليهم من جميل ! فهل تذكر وتشكر ؟ ؟

والأنبياء شهود على أنهم بالبلغ الدين ، وقد كان رسولنا ﷺ وهو يخاطب الناس فى حجة الوداع يقين : اللهم قد بلغت .. اللهم فاشهدا .. وهناك قبل شهادة الأنبياء موافق الفطرة التى أخلقنا الله على أبناء آدم . إن الله أودع فى كل ضمير صوتا يذكر بالله ويدفع إلى صراطه المستقيم ، ويقاوم التقاليد

(١) البقرة : ١٥٠ . (٢) البقرة : ١٥١ . (٣) البقرة : ١٥٢ .

إن العرب عندما يحملون للناس حضارة فهذه تنفرد بأنها موصولة بالسماء ، تعرف الله ، وتلتزم هداه ، وترفض المفسغات المادية ، والرغبات الجبرية فى عبادة الحياة ونسيان ما بعدها ..

وقد شاء الله أن يذكر للعرب وظيفتهم الدولية ، عندما جعل قبلة المسلمين فى أرضهم وعندما طالب البشر فى كل مكان أن يولوا ووجههم شطر المسجد الحرام .. فما معنى ذلك ؟ ..

إذا قيل : إن موسكو قبلة الشيوعيين فى العلم ، وليس معنى ذلك اتجاه المسلمين إلى جيل فى دلاكرملين ! بل المنى أنهم يستقون أفكارهم ويتلون توجهاتهم من هناك ... والواقع أن القرآن الكريم فى سياق تحديده للقبلة قال للعرب فى جلاء : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ (١) . والآية توضح الوظيفة التى اختارها للقبلة لا ممتنا ، فإن الله اختار محمدا لحمل أساتات الوحى ، وليكون بسيرته وسته أموة حسنة ! . وقد تلقى العرب ذلك منه ليعلموا الناس كما تعلموا ، وليهدوهم كما هدوهم ، أو ليكونوا أساتذة للأمم كما كان محمد أساتذا لهم . تلك وظيفتهم التى رفعهم الله إليها ، والى لا بد من حسابهم عليها ..

والشهادة على الناس منزلة فوق التبليغ المادى ! قد يكون المرء شاملا فى قضية لا علاقة له بوقائعها ، كل دوره فيها أنه يقول الحق ، فلي هذا دور الأمة العربية فى تاريخ البشرية ؟ كلا ، وما تحول الشاهد إلى منهم إذا تبين من التحقيق أن له أصابع فى وقع الجبرية !!

والعرب منذ حملوا رسالة الإسلام وجب عليهم أن يستنبطوا بها وأن يرفعوا منازها ، وأن يستنبطوا بأدوتها ، وما فوجوا على العالم بدوائها ، فمستوليتهم مضاعفة . الرسول أمام الله يشهد بأنه علمهم من جهالة ، وأقامهم من عوج ، وهم أمام الله كذلك مطالبون بالشهادة على سكان الأرض ، أنهم بلفهم الوحى الأعلى وقلدوا من أنفسهم غاذج عملية للتقوى والإصلاح والإنصاف ! ترى هل قام العرب بهذه

(١) البقرة : ١٤٣ .

هل للعرب في قديم الزمان وحديثه رسالة أخرى غير الإسلام يمكن أن يؤدوها للعالم؟ ..

إن محمد كتاباً رسته قامت عليهما دولة ، وأبنت حضارتاً وصدرت قافلة البشرية أمة تعتر بها وتبنى عليها ، فمما لاغيره في الأولين والآخرين؟ وما قدر العرب من غير محمد والإسلام؟ ..

قال شخصي آخر: ولم ضروري أن تكون أمة ما رسالة مساوية حتى تقتصد مكانة مرموقة في العلم؟ .. ما أكثر الشعوب التي استراحت واستغفرت برسالات أرضية! ..

قلت: هذا الكلام قوة عين الاستعمار والصهيونية! إنهما لا يريدان أكثر من تجريد المسلمين من عقائدهم وتاريخهم حتى يقفوا أمام أعدائهم عزلاً من كل سلاح فمال ..

وعندما يقفد عرب فلسطين لمسامهم الديني أمام اتباع التوراة فستفتح فلسطيناً .. وعندما يزهد غيرهم في معتقده الإسلامية فسيطلق التشيع العالي دون عائق ، وتكسب الصليبية جريئتها الجديدة .

لا بل إن الوثنية التي ذبحت المسلمين في «أسام» ستقطع شوطاً أوسع في الإجهاز على مبدأ التوحيداً ..

إن تحقير الثقافة الإسلامية وتوهين أركانها لا بد أن ينتهي بهذه النتائج .. أما يحق لنا أن نحسن الأجيال الجديدة ضد هذه الحيلانات الفكرية والاجتماعية؟ ..



المتحرفة والأصوات الزائفة ، وما من إنسان إلا هو مستول من هذا الميثاق: ﴿وَأَنزَلْنَا أَخَذَ رِبْكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا إِنَّا هِيَ غَالِبِينَ وَإِنَّا نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَيْنِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ آبَاؤُنَا﴾ (١)

وتفصح من ذلك أن المبدأ الإلهي يستظهر على كل مخطط بشاعدين من العقل والقلل! ومع ذلك ، فإن ناساً يوم الحساب سيحاولون بالكذب الإفلات من مصيرهم ..

مشركون يقولون: ﴿وَاللَّهُ رِثَاؤُنَا كَمَا مَشَرَكِينَ﴾ (٢) ودجالون مرنوا على الاحتيال والتخادعة في الدنيا يحاولون في الآخرة أن يقوموا بالدور القديم ﴿يَوْمَ يَمْتَحِنُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُحْطَرُونَ لَكُمْ يَحْطَرُونَ أَكْثَرًا وَيَحْطَرُونَ أَكْثَرًا عَلَى شَيْءٍ إِلَّا أَنَّهُمْ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٣)

ومبهمات أن يهدى هذا التملص مهما صاحبه حلقاً ..

ولما كان محمد ﷺ شهيداً على العرب فسيجاء به يوم القيامة وبالكتاب القيم الجامع الذي بلغه ، وسرى عنده من ربي ومن غدري! بل من أين ومن كثر؟ قال الله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى مَوْلَا وَرَبَّنَا عَلَيْكَ الْكَافُ كِتَابًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى الْمُسْلِمِينَ﴾ (٤)

إنني أحببت أن أشرح هذه القضية لأن العرب من أمة قريب أو بعيد شوهوا ينسبون أو يتناسون رسائلهم بل بدا لهم أن يستقبلوا من الوظيفة الشريفة التي أكرمهم الله بها أو اصطفاهم لها .

وسمنا من يقول في جهل فاضح: إن المروية شيء ، والإسلام شيء آخر! وإن المروية يمكن أن تنق طريقها بغير دين إلى مستقبل مكنياً ..

وقد استجاب نثر من الأحرار لهذه الفرية ، فأذا الأمة المسكينة تتراجع في كل ميدان ، وتلاحقها الهزائم الشائنة في كل آفق ، ولولا بقايا إيمان مبنية هنا وهناك حل بها خزي الأبد ، ولكنها تقوم اليوم بأسمى شديد معتمدة على موارث الإسلام وحده .

(١) الأعراف: ١٧٢ ، ١٧٣ . (٢) الأنعام: ٣٢ . (٣) البقرة: ١٨ . (٤) النمل: ٨٨ .

إن التعدد جائز بشروطه المادية والأدبية فإذا لم تتوافر هذه الشروط فلا تعدد..
وحل المشكلات الاجتماعية من هذا النوع يرجع إلى بقطة القلوب وسلامة
الاخلاق قبل أن يرجع إلى سلطة القاريون ، ومكاسب النساء من التعدد - وإحلاله
هذه - ليست أول من مكسب الرجال..

أما إباحة التطلق للرجل فأحب أن أضح بين يديه هذه الروايات ، قال رجل لعمر
ابن الخطاب: أريد أن أطلق امرأتي؛ فقال له عمر: لم؟ قال: لا أحبها؛ فقال له عمر: أو كل
اليوت بنيت على الحب.. فأبين التدمم والوقعة..

ورثيه هذا ما رواه ابن مروة: إن أبا أيوب أراد طلاق أم أيوب، فاستأذن النبي ﷺ، قال:
انسي؛ فقال له: الرسول: إن طلاق أم أيوب طوبى به؛ أي: إنم تكف عن مراده وأمسك امرأته..
وقد روى مثل ذلك من طريق آخر، أراد أبو طلحة أن يطلق أم سليم امرأته، فقال
النبي ﷺ: «إن طلاق أم سليم طوبى، فراجع الرجل عن مراده..
وقد يكون الأصح في هذا الإصصاق قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَإِنْ أَقْبَضْتُمْ كَفًّا لَا تَتَرَوْا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا إِنْ كَانَ عَلَيَّ كَيْفًا﴾ (١)

إن الحياة الزوجية أشرف من أن تعصف بها أزمة عارية أو ضيقة عارضة، وما بين
الزوجين من وشائج لا يرضه إلا النصف..

بيد أن سباح الأسرة لا يقبضه إلا الغلق القوي، والأسر التي يحسبها القانون هي أسر
على الورق وحسب. وقد ستم الأوربيون هذا الخداع واضطروا إلى الاعتراف بالواقع
المرير، فأباحوا الطلاق في انتخابات عامة حوت وصايا الكنيسة في الموضوع..

إنني لا أكرى كيف يدفع رجال الشرطة امرأة إلى زوجها أو رجلا إلى امرأته!
أجل الأمثل هو في قوله تعالى:

﴿وَأَمْسِكُوا مِنْ بَيْنِهِمْ أَوْ قَارِعُوا مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ (٢)

وذلك بعد مراحل من الإنذار والإصلاح مبسوطة في كتب الفقه..

قد يكون الطلاق جراحة لا مفر منها بعد ذهاب اليود وجفاف الختان وتولد
مناخر أخرى على حجة ما قيل:

إن القسوة إذا انتشرت ودهست
مثل الرجاجة كسرها لا يعجزها

(١) صدوق: ٧.

(٢) النساء: ٣٤.

٨٥. هل من تكريم المرأة إباحة التعدد والطلاق، وجعلها نصف الرجل في الميراث والشهادة؟

في قضية تعدد الزوجات أريد أن أسأل أولا: هل الإسلام مبيح للتعدد مخالفا
بذلك الأديان التي سبقت؟ إن الأديان كلها، وثنية أو سامرية أباحت التعدد فلماذا
يسأل الإسلام عنه ويأخذ به؟..

ليس في العهد القديم حظر على تعدد الزوجات، وقد جمع سليمان الحكيم
صاحب نشيد الإشاد المعاصر بالفنون - ألف امرأة في بيته بين حوائر وأما ما..
وليس في الأناجيل التي كتبها تلاميذ عيسى عليه السلام حظر على التعدد
إن التحريم الذي وقع بعد ذلك كان تشريعا مدنيا لا دينيا، أو كان كسبا يعتمد
على الاجتهاد لا على النص.

قد يقال: فليسمح الإسلام ما وسع الأديان قبله، وليحرم التعدد!..

وهنا لا أجد مناصا من توجيه سؤال آخر؟ هل اكتفى كل رجل، أو أغلب
الرجال، بما لديهم فلم يتصل أحدهم بالآخر؟ بل أسأل الرجال الذين تطلبهم
حفارة الغريب في عدة قارات: ألم يشعروا علاقات متصلة طويلة الأمد أو قصيرة
بأعداد كبيرة من النساء الأخريات؟..

لماذا يبراد قبول المرأة الأخرى خلية لا حلية؟ لماذا يرمى إليها لقيطا، أو ينشأ
زنيما، ولا ينسب إليه الحقيقي؟..

إنني أتهم إخواننا أهل الكتاب بأنهم استهانوا بقياس أهل الخبرة، وأنهم
اتبعوا أهواءهم بغير هدى من الله، وأنهم - من الناحية الجنسية - استباحوا
الأعراض واجتاحوا الفروج، ورسوا الشذوذ، ومهلوا لما كره ما عرفت بهذه الوفرة
إلا في حضارتهم المادية الموزنة في الإنهم..

أيض: تلك أني ألتفت عن تصرفات سعة أركبها المسلمون باسم التعدد كلا، لقد عدد
من لا يعمل، وهذا مرفوض! بل عدد من لا يستطيع الاتفاق على واحدتها مرفوض!..

وإذا كان الطلاق حق الرجل للحلاص، من هذا الوضع فالخلع حق المرأة للراحة منه، وليس لأحد أن يكره المرأة على البقاء في بيت مقتت صاحبه وأحست الضرر بجوارحه ﴿ولا تمسكوهن ضراً ولا تعتدوا﴾ ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه^(١).

وعندما تطلب الزوجة الفراق فيجب أن ترد إلى زوجها ما ساق إليها من مال، ومن الحيف أن يدفع الرجل المهر، ويوصل الهدايا ثم تستولى المرأة على هذا كله وتطلب الانفصال!

ويحزنني أن جل الفقهاء تناسى شريعة الخلع أو أبطل حكمتها، وأن الجماهير لا تعرف شريعة تمتنع المطلقة! وأن طلاق السنة - كما صرح عن صاحب الشريعة - لا يطبق! وإنما المألوف المحترم هو طلاق البدعة، فقد أمضيت آثاره كلها بوحشية!

وعندما نيقظ فقيه ذكي كابن تيمية إلى أن طلاق البدعة باطل منكر الأثار تعرض لنقد شديد!..

وما يشير الدعشة أن أنصار ابن تيمية في عصرنا لا يوافقونه على إبطال طلاق البدعة، وإنما يوافقونه على إنكار وقوع المجاز في القرآن الكريم! وهذا من هوانه غفر الله له.

واعتقادي أن الفقهاء المسلمين المعاصرين - وهم يحسون الخنة الاجتماعية التي يجر بها المسلمون - سوف يسدون هذه الثغرات، ويستقون من أقوال الأئمة والجهتهدين ما يلزم شمل الأسرة، وفيها حيث العائش...!

ويجىء بعد ذلك عمل المرأة لتنفق على نفسها! إن الإسلام له منهج آخر غير ما يعرف الآن في الحياة الغربية بشقيها الشيوعي والرأسمالي، المرأة هناك - عند البلوغ - تستقل بنفسها، وتزوجه مستقبلها، وتكلف بتحصيل قوتها، والضرب في فجاج الأرض لتأمين عيشها، وهي تزاخم الرجل في كل ميدان!

ماذا نشأ عن هذا الوضع؟ فقد انقلب أغلب النساء لعفتهن، واستطالة الذئاب في أعراضهن لسبب أو آخر!..

والجتمعات الأوروبية والأمريكية والاسترالية كانت تطبق على اعتبار الناحية الجنسية حاجة جسد لا علاقة لها بالخلق والدين، وكانت لهذه الفلسفة الحيوانية نتائج رهيبية!

(١) سورة: ٣٣٦.

والإسلام يرفض هذا الفكر وأثاره كلها، نعم، قد تعمل المرأة في ظروف تختارها أو تختار لها، وبعد توفير ضمانات المصون وحماية الشرف ومرضاة الله...

أما تكليفها بالكدر لتفقات، ولتوفر مهراً للرجل المنتظر فلا... ولا... ولا... وهذا يوجب الإسلام تفتتها على أبيها أو أخيها أو ذوى قرابتها فإن لم يوجد أحد أوصد لها ما يكفيها من بيت مال المسلمين...

ورعاية للرجل على النهوض بهذا العبء جعل حظه في أغلب الموارث ضعف حظ المرأة... وقد تساويان في حالات كثيرة. كما أمره بأن يدفع هو للمرأة مهرها لا أن تدفع له كما توصى بعض الديانات.

وسلى الرجل أن ينصب ليقيوت زوجته وولده، فإذا عرضت ظروف لتعمل المرأة خارج البيت كان لذلك وزنه الخاص وملابساته المقدورة!..

أعتقد أنه ليس من تكريم المرأة تكليفها بالارتزاق في أحوال مقلقة، ولا من تكريمها أن تجمع بين وظيفة ربة بيت، ووظيفة أخرى ترهق أعصابها وتستغرق انتباهها...!

وبعض الجهة يستغل فضل الرجل على المرأة في الميراث ليهينها ويؤذى منزلتها، وكفى لسيء إلى ديننا من أولئك الجاهلين.

ولنثبت هنا حينئذ يحتاج إلى بيان وفقه، دار على كثير من الألسنة، واستغل بخبث لتحقير النساء وإلهاب عداوتهن ضد الإسلام... روى مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يا معشر النساء تصدقن، وأكثرن الاستغفار، فإني رأيتكن أكثر أهل النار».

فكانت امرأة مسهية جزلة، ومالئها رسول الله أكثر أهل النار!..

فقال: «تكثرن ثمن، وتكفرن العشير» ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لدى لب مسكين!..

فألت: «يا رسول الله، ما نقصان العقل والدين؟ قال: «ما نقصان عقلها لشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل! وتمتكت البياض لا تصلى، وتقطر في رمضان، فهذا نقصان الدين».

ثم عندما يكون عامة من دخل النار من النساء فإن يذهب قوله تعالى :

﴿ جَنَّاتٌ عَنْدَ ذِيْ طَارٍ يُدْخِلُ فِيْهَا مَنْ يَّصْلِحُ مِنْ بَنَائِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ ذُوقُوا فِيْهَا ثَمَرَهَا ۖ ﴾ (١)

الواقع أن عرض الحديث النبوى دون فقه صالح ، لولن من تحريف الكلام عن مواضعه ، ومصاب الإسلام شديد من هذا التصرفا ونعود إلى حديث النساء ونقصان العقل والدين ..

صدر هذا الحديث بقى الأسرة الإسلامية شراً يشيع بين الناس ، جزئوته امرأة تحيا على خير رجلاها ، وتتكرر فضله ويحدد حقه ، قد يخطئ الرجل ، وكل بنى آدم خطأ ، وينبغي أن تتجاوز المرأة هذا الخطأ المارضى ، وربما كان الخطأ من وجهة نظرها .. ولكنها بدل ذلك تنقص غضبها طائشا ، وتنسى فى ثورتها كل شيء ، وترغم أنها ما رأت خيرا قط من زوجها ، وقد تلعن نفسها وحفظها وما حدثت أو يحدث لها ..

ليس من حق النبى ﷺ أن يحذر من هذا السلك ، وأن يذكر لصاحباته أنهن إن أصررن عليه يكن من أهل النار؟ .. ثم يستورد الحديث : " ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب لذى لب متكنن ، والعبارة متصلة بالجملة قبلها ، فلان الرجل قد يستكين لامرأته ، واطلق معه ، حتى يوفر الهدوء فى بيته ، ويضع اللجاجة والغصام وقد يلقى فكرة الصائب من أجل ذلك الهدف ما قد يدفع بالمرأة المتروكة إلى مزيد من العنت ! ..

وهذه هزجة ذى اللب كما عبر الحديث أو أولى الألباب كما نرى فى مجتمعات كثيرة تنتصر فيها رذائل النساء على عوازم الرجال ..

والمرأة - على ضعفها - تحب أن تغلب غيرها وتعرض نفسها ! قد تقول وما هذا الضعفاء وانجواب فى تكونتها الخلقى ، فانها تضعفى عليه أو شبه عليه خلال المورة الشهوية لئى تعاندها ، وتؤثر فى أعصابها وأفكارها ، وقد عذرها الله من أجل ذلك ، وأغفاه من بعض الفروض ..

إن نفرا من المتحدقين فى الدين شاء أن يفهم من هذا الحديث أمورا لا علاقة لها به ، فصاح فاعده كلية نشرها فى طول الأمة وعرضها مفادها ، النساء ناقصات

وقيل أن تحكم على ظاهرها هذا الحديث وتشرح معناه تذكر حديثا آخر يساويه فى قوة للسند ، وي زيد عليه فى تكرار سياقاته ، وتعدد رواياته ..

هذا الحديث هو قول رسول الله ﷺ : « اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها النقران : واطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء » . وفى رواية أحمد : ... فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء ..

ومن أبى هزيرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قد دخل فقرء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بضعين يوم ، وهو خمسمائة عام » ..

ومن أسامة بن زيد عن النبى ﷺ قال : « قمت على باب الجنة فكان عامرة من دخلها المساكين : وأصعب الجهد اليسار والمأني ، معبوضون غير أن أصحاب النار قد أمرهم إلى النار ، وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء » ..

مافأ تعنى ظواهر هذه الأحاديث جميعها ، وما أثرها المنظور فى بناء الأمة الإسلامية ؟؟ ..

إنها تعنى ترجيح الفقر على الغنى ، والمسكنة على السمنة ، والمصلحة على النزاه والتكبر ..

ليكن أن تقوم دولة أو تزده حضارة أو يكسب المسلمون مبركة وهم واقفون عند هذه الظواهر لا روى عن نبيهم ؟ ..

إن ذلك مستحيل ، واطق أن هذه الظواهر غير مرادة أصلا ، وأن معانها فوق مستوى القاصرين ، ولذلك قلنا فى كتاب آخر : إنه لا يستغنى بغير فقه ! ..

الزعم بأن كل غنى وذيلة زعم سخيف ، فالغنى اغتور هو الكسب من سحت ، أو الكثرة لا يستفيد منه مجتمع ، والأغنياء من هذا القبيل أملاء الله وأعداء الشعوب وإذا ملأوا جهنم فهم مصير عدل ..

أما تكون الثروات من وجه شريف ، وإتناء حق الله فيها ، وتطويعها لإعلاء الإيمان ، وحماية الثغور فهذا محض الإيمان ..

وقد كان المعثرة البشرية بالجنة من هذا الصنف ، ولم يكن ففهم رجل مثل .. والفقير الذى أثر القلة من حلال على الكثرة من باطل ، أو الذى ملك بجهده المبدول ولكنه ضحى بما يملك فى سبيل ربه ليس أقل درجة من غيره ، وكونه يستغنى أو يسبقه غنى ليس إلينا ، وإما يت فيه علام الغيوب ..

٨٦. ما موقف الإسلام من المرأة في ضوء الأوضاع السائدة في مجتمعاتنا؟

انتي أسأل أولاً :

هل عولت المرأة في العالم الإسلامي وفق تعليم الإسلام؟ ما اظن ذلك وقع إلا نادراً ..

إن الحاكم في مستتركه روى حديثاً موضعياً حكم للمعلم الإسلامي أكثر من ألف عام ، يقول هذا الحديث : لا تعلموا النساء الكتابة ، ولا تسكروهن العرف .. أي إذا كان البيت مكوناً من طبقات لم يجوز إسكان النساء في الطبقات العليا ، حين ظهر الأرض أو تحتها إن أمكن !! ..

ونظيماً لهذا الحديث المكثوب لم تفتح مدرسة لتعليم البنات في قرية أو مدينة خلال قرون الماضية وأصبح تثقيف النساء من الفضول ، بل من النادر المحظورة !! ..

وروى عبدالله بن عمر قول رسول الله ﷺ : لا تتعلموا إمامة الله سبحانه الله ، وفي رواية أخرى : ائذوا النساء بالليل إلى المساجد فقال ابنه معترضاً التوجيه النبوي ، ائذوا يتخذنه دفلاً - أي مهرباً لا تتراف المسند - والله لستمهين .

فوكز عبدالله ابنه في صدره ، واشتد عليه غضبه ، وقال : أقول : قال رسول الله وتقول : لا .. وقاضه إلى آخر حياته ..

ولغريب أن العالم الإسلامي لم يكثرث لرواية ابن عمر - على صحتها - وتبع رأى الولد السمين الأدب !! ..

ويوجد حظر عام على ارتياد النساء للمساجد ..

وبعد جهاد سين طريقاً للساح : صلاة المرأة في المسجد أمكن فتح أقل من ١٠٪ من بيوت الله لإمام الله ، أما الكثيرة الساحقة من مساجد القرى والمدن فهيات أن يدخلها النساء ..

عقل ودين ، وسواء كانت «آل» للجنس أو الاستغراق فهذه الكلية الشاملة فائدة ، من ناحيتي العقل والعقل ، فقد اكتملت قديماً وحديثاً نسوة أرضين الله ورسوله وخدمن الدين والأمة خدمات جليلة .

ومنه الكلية للزوجة تتنافس الآيات القرآنية التي قررت أن النساء والرجال بعضهم من بعض ، وتتنافس الأحاديث التي جعلت النساء شقائق الرجال ..

وزاد العليين بلة في عليب المرأة المعاصرة على الإسلام أن البعض فسر نقصان العقل بالحمالة ونقصان الدين بالمصيبة ، ورد الآية ترادف الحقة والهوان ، وهذا التفكير استبعاد للجاهلية الأولى ، وهو بعض ما يشين النفسية العربية ، والإسلام يريه من هذا المنور ..

ونسال بعد ذلك البيان : أكل امرأة تتعصف بالجميل؟ أكل امرأة تتعصف بنكران الجميل؟ أكل امرأة تتهم بكفران المشير؟ ما أبعد ذلك من واقع الحياة ..

لكن من المسلمين إلى الآن من يظن الغنى أخطر طريق إلى النار ، ومن يظن الآية أسرع شيء إلى جهنم ..

وزيد أن نفق ديتا لروايات هؤلاء الملقين الكذبة ، وأن تتعصف للمعصوم والأخبار من يتهمون عليها دون وعي ..

المهم أننا انصرفتنا من المسجد ، وظل السؤال معلقا بين الأراء التي اختلفت عليه! ..

كان مطلوبا من الشيخ المفتي أن يغير فتواه ، وأن يحكم بحس المرأة في البيت ولم مات أبوها وأيد ذلك الاتجاه أن متفهمها ذكر حديثا معناه أن الله رضى عن زوجة بقيت في بيتها حتى توفى ولدها فلم تعد في مرضه الأخير ، لأن زوجها كان في سفر فلم يأذن لها بالخروج من البيت¹.

قلت : هذا حديث مكثوبا واستغربت أن يطلب من امرأة ما باسم الإسلام أن تق أباهما ، وتقطع به صلتها ، وتدعه يورت مستوحشا لأن هذا حق رجلها ..

وعندما تفقد المسكينة عاطفة البتة فعماذا يبقى من كيانها الإنساني في بيت الزوجية؟ إنها ستكون أسيرة فعل بلك أمورها وقهرها .. وحسبها ..

وفي الأرياف كان أغلب النساء يقعد مبراته الشرعي ، فتقسم الأرض على الذكور وحدهم ، ويقول الإخوة الذين اجتاحتها الأرض : كيف تترك غريبا يتزل بأرض أبنائنا ويعتون بالغريب زوج أختهم! ..

فإذا حدث أن طالبت الأخت بتعصيبها الشرعي فأطعها إخوانها إلى الأبد .. والأسر الشريفة لها تقليد عجيب - أعني الأسر التي تدعى الانتساب إلى البيت النبوي - فالزوجة توت عانتا بأئمة إذا لم يعتن بها الكفء من الأشراف ، أما الرجل فله حق الزواج من الإنكليز والأمريكانا ..

ويظهر أن بنات المم سام أو المم جون لهن شرف يضارع شرفه ، أما النساء اللاتي تكن بالمم الشريف ، فلا كفء لهن على المدي البعيد إلا الموت ! ..

وروى البخاري عن الربيع بنت معوذ قالت : كنا نفترق مع النبي ﷺ فنسقي القوم ونخدمهم ونز الجرحى والقتلى إلى المدينة ..

ويبدو أن هذا التقليد كان قصير العمر جئاً ، فاستخفى في أيام الحرب وسلم على سواء وتعتمد المستشفيات في العالم الإسلامي اليوم على الممرضات الأجانب ، وإذا كان النساء قد متعن المساجد أفكان يؤذن لهن بالذهاب إلى ميادين القتال؟

كنت في دولة الإمارات المتحدة ، وشاركت في قضية جديدة بالمعرض ، نشرتها جريدة الاتحاد على هذا النحو : قال الأستاذ مصطفي شردى : نحن في إحدى أمسيات الثلاثاء بسجد سعد بن أبي وقاص . انتهى المحاضر من حديثه وبدأ التعار.

سؤال جاء من الشرفة المخصصة للسيدات . تقول صاحبة السؤال إنها متزوجة منذ سنوات ، من رجل له أكثر من زوجة . وأن زوجها لا يسمح لها بزيارة أسيها ورعايته بين الحين والآخر ، على الرغم من أن الأب وحيد يحتاج إلى الرعاية والحماية ، ولشعور بير الأبناء لا بانهم يتقصها فهل تلج الزوج وتعمل واجب رعاية الأب ، أم تختلف زوجها وتطبع قلبها وتكون بارة بوالدها؟ أثار السؤال الهمس ، ثم سكت الجميع انتظاراً لا سيرد به المحاضر وهو عالم فاضل ، وكان من الواضح أن السؤال من أوتار في العديد من القلوب ، وأعتقد أن قلب المحاضر من بينها ..

حمد الرجل الله وأثنى على الرسول الكريم ، وتحدث عن التزام الزوجة بطاعة الزوج ، وكيف أن الإسلام شدد على الوفاء والتمسك بهذا الالتزام لمصالح الأسرة وسلامة المجتمع ، وطالب الزوجة بأن تضاعف جهدها لإقناع زوجها حتى يسمح لها برعاية أسيها ، إلا أنه اختتم إجابته برأي محدد اجتهد فيه فقال : إنه في حال تمسك الزوج بوقفه القاسي الغريب دون ميرر مقبول ، فإنه على الزوجة أن تباور إلى زيارة أسيها ورعايته وتقديم حنانها إليه ، لأن النعم القرآني بشأن بر الوالدين واضح وفاقطح وصريح ، ولأن لهذا الزوج بالذات أكثر من زوجة تخدمه وترعاه إذا غابت عنه واحدة لأداء واجب البر والإحسان تجاه والد عجوز مريض ضعيف أمرها الله بأن ترعاه وتحسن إليه .

انتهى المحاضر من إجابته فاشتد الهمس! وبين المحاضرين عدد كبير من التزوجين بأكثر من واحداً وقد رأوا في إجابة المحاضر تحريفاً للزوجات على عدم الالتزام بأمر الزوج ، حتى ولو كانت متمارضة مع المنطق وتنضارية مع المعقولا وبدأ فريق من المحاضرين يناقشون الرأي بأصعب على الانفلات: نقالوا : إن رأى المحاضر يتعارض مع تعليم الإسلام ولا بد من التراجع عما لأن طاعة الزوج واجبة قبل أى اعتبار آخر ، وقسك المحاضر برأيه وكانت تهب عاصفة من الاحتجاجات بسبب هذا الرأي ، وتعود إلى مهاترة لا يسمح بها ..

وَمَا أَنبَأَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَهُمُ الْمُؤَنِّنَاتُ مِنْهَا جَرَأَتِ فَأَسْتَجِبُوا مِنْ اللَّهِ أَعْلَمُ بِأَعْيُنِهِمْ أَنَّنِ عَجَبُوا مِنْ مَوْعِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوا إِلَى الْكَافِرِينَ (١)

ورود أن عمر بن الخطاب كان في ذلك الامتحان يحلف المرأة المهاجرة : الله ما خرجت رغبة بأرض عن أرضي والله ما خرجت ما خرجت من بغض زوجي والله ما خرجت التماس دنيا والله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله .

ماذا ترى في هذا القسم ؟ .. وفيمن أدته ؟ .. ألا ترى شخصية مستقلة واضحة الوجهة محترمة المسلك ، تحارب وتسلم وتقيم أو تسافر وفق ضميرها وتفكيرها ؟ .. أين هذه الشخصية التي وافقت الرسول في مكة ، والتي هاجرت إليه في المدينة ، من شخصية المرأة المسلمة في القرون الأخيرة ؟ ..

المرأة التي لا تعرف كتاباً ولا إيماناً ولا صلاة ولا ثقافة عامة ، بل التي يعتبر من المعيب المفاضح أن يعرف لها اسم ، أو يبتد لها شبح ؟ لأنه لا وظيفة لها إلا إعداد الطعام ، وإرضاء لبيد !! ..

ولا أريد أن يفهم غرائبي وأغربي في نقل معلم الحضارة الغربية إلى مجتمعاتنا . فهذه الحضارة تجمع خليطاً من التقاليد الحسنة والتقاليد الرديئة ..

وإنما أريد إصعالم النصوص المكتوبة أو المفهومة من سيرة الرسول ﷺ ، وسلفه الأول ، وهذا مسلكت يعجز عنه أصحاب الخيال والشلو ..

لقد رأيت في قضية المرأة أحاديث موضوعة ، وأحاديث واهية صححها الفرض المدخول ، وأحاديث صحيحة حُرِّفت عن مضمونها ..

واستغربت وأنا أتقرأ لبعض الفقهاء أن صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في المسجد الحرام أو المسجد النبوي !

وقلت : لو كان الأمر كذلك فلم أشرف الرسول على تنظيم صفوفهن في مسجده ؟ ولم جعل لهن باباً خاصاً بهن ؟ ولم ذهب إليهن فعلنهن وحشهن على الصدقة ، ولم حذر فلبعضه أن يعرض على القرب من صفوفهن ؟ ..

الواقع أن المرأة أولى بها أن تهمل في البيت إذا كانت مسئولة التغطية أو التربة تفرض عليها ذلك ، أما إذا تخلفت من هذه الواجبات لسبب أو لآخر فلا ينعينها بشر من الذهاب إلى المسجد ليلاً أو نهاراً .

أي إن صلاة الجماعة ليست مؤكدة في حقها كالرجال ، وليس يفيد ذلك فرض حصار قاتل على حياتها العملية والعائلية ، وتحريكها إلى مسخ لا مكان له في دنيا ولا دين ، كما انتهت بذلك الأوضاع الاجتماعية في العالم الإسلامي ..

عندما فتح النبي ﷺ مكة خرج النساء لمبايعته ، وتلقى تعليم الإسلام منه ، ولم يحتسبن في بيوتهن قفواً عن هذا الفرض ، أي إن علاقة المرأة بالطبقة العامة كانت قائمة ، وكانت من الناحية العملية - تسيرو في خط يحاذي علاقة الرجل ، ولا يطابق معه ..

وقبل فتح مكة اعتدت نساء كثرات إلى الإسلام ، ورفض البقاء مع أزواجهن الكفار فقررن الهجرة إلى المدينة ..

وحدث ذلك في وقت كان المسلمون فيه ملزمين ببرد كل من يلحق بهم من مكة فأرا بدينه - تنقيها لماهدة الطبيعة .

ولكن القرآن تزل يستثنى النساء من ذلك الحكم فقال تعالى :

٨٧. ما أبعاد النشاط الاجتماعي للمرأة على ضوء الاجتهاد الفقهي؟

في النشاط الاجتماعي للمرأة يمكن أن تعرف أبعاد هذا النشاط إذا ذكرنا أن قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تشمل الرجال والنساء على سواء ، وذلك ظاهر قوله تعالى :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيَطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ (١)

إن الأمر والنهي والصلاة والزكاة وطاعة الله ورسوله ليست حكماً على أحد الجنسين ، ولزعم بأن المرأة تفصل وتركى وتسكت في ميدان التعصبة زعم باطل .. ولذى حدثت في القرون الأخيرة ، في قرى كثيرة أن المرأة سقطت عنها هذه التكليف كلها ، فلا تهيئ أو تتركى ، إلا قبل المرأة بفترة تقبل أو تقصر بحسب الإبلات ..

على أن حوصلة المجتمع تقل من ميدان التنظر إلى ميدان التطبيق ، وهنا تبعد المسافة بين أقوال الفقهاء في الإمكانيات التي تعطاها المرأة ، ويبلغ الاختلاف حد التضاد .. فإين جريد الطبرى يجهز للمرأة القضاء في كل شيء ، يجهز للرجل أن يقضى فيه دون استثناء !

ويقول الأحناف - كما جاء في البدائع - إن الذكورية ليست شرطاً لتقلد منصب القضاء في الجملة ، لأن المرأة من أهل الشهادة في الجملة ، إلا أنها لا تقضى في الحدود والقصاص لأنها لا شهادة لها في ذلك ، وأهمية القضاء تنور مع أهمية الشهادة ! وهنا نسأل : ما قيمة شهادة المرأة في الحدود والقصاص ؟ والجواب أن جمهور الأئمة يرددها .. جاء عن الزهري رحمته ، مضت السنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخلفين بعده أنه لا تجوز شهادة النساء في الحدود والنكاح والطلاق ، وفي رواية أخرى والدماء ..

(١) توبة : ٧١ .

وينقض ابن حزم هذا الكلام كله ويجوز شهادة النساء في كل ما ذكره ويقول في حديث الزهري : أنه بليغ ، وإن استأنه منقطع ، وهو من طريق إسماعيل بن عياش - وهو راو ضعيف - عن الخياط بن أرقطه - وهو هالك - تلك قيمة حديث الزهري عنده ..

ويرى ابن حزم قبول شهادة المرأة في كل قضية بعد مضاعفة التعصبات ، فيقبل في حد الزنا ثمانى نساء بدل أربعة رجال !

والدليل الذي يعتمد عليه ابن حزم هو المصمم الظاهر في حديث مسلم عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل ، وما رواه البخارى عن أبي سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث : « ليس شهادة المرأة من نصف شهادة الرجل » قلت : بلى ..

فقطع رسول الله بأن شهادة امرأتين تعدل شهادة رجل .. قال ابن حزم فوجب ضرورة أنه لا يقبل - حيث يقبل رجل لو شهد - إلا امرأتان ، وهكذا مازاد ..

ويفسر ابن حزم قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ تُتَوَدَّرَ الْأَفْئَاتُ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حُكِمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (١)

فيقول : هنا متوجه بعمومه إلى الرجل والمرأة والحر والعبد ، والدين كله واحدا لا حيث جاء نص بالفرق بين المرأة والرجل ، وبين الحر والعبد ، فيستثنى من عموم إجمال لسين !

وقبل ذلك يقول ابن حزم : وجائز أن تلى المرأة الحكم ، وهو قول أبي حنيفة ، وقد روى عن عمر بن الخطاب أنه ولي القضاء - امرأة من قومه - السوق ..

فإن قيل : قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة » قلنا : إنما قال رسول الله في الأمر العام الذى هو اخلاقه .

برهان ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « المرأة راعية على حال زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها » . وقد أجاز المالكيون أن تكون وصية ووكيلة ولم يأت نص يمنعها من أن تلى بعض الأمور ..

(١) النساء : ٥٨ .

إن الله أمر بانقضى من البصر ، ووجه هذا الأمر للمؤمنين والمؤمنات ، فجاء من أمر جميع النظر أصلاً ..

فإذا كانوا يعتقدون الكلاب فيفضلوهم مالك بن أنس يرى الكلاب طاهرة البرق
والعرق ، وقد كان للفتية اللذين من أهل الكهف كلب يلزمهم في أحلك الأوقات .
ولذا كانوا يسمون الوسيقي فيبعلوا ، فالعزالي وابن حزم وغيرهم يرون متاعها
ولا مسخ لزوجهم عن أمر ليس لدينا قاطع في متعه . .

٨٨. ما نظرة الإسلام إلى الأسرة، وما عمل المرأة في بنائها؟

الذين خبروا الحياة في أوروبا وأمريكا يؤكدون أن الأسرة وهم لا حقيقة له ، وأنها في أفضل أحوالها تقوم بجزء تافه عما يجب أن تقوم به لإشياء أجيال ازكي وأقوم . .

إن البيت خاو على عروشه أغلب اليوم ، لأن الذكور والإناث توزعهم ميادين العمل والسلام ، حتى الأطفال وكلتهم أمهاتهم إلى دور الحضانه ، وانشغل كل امرئ - بعد - بما انشغل به . . .

وهم يسمعون عن جو الأسرة في بلادنا ، وربما حلمت بعض المراهقات أن تحيا فيه ، ولكن الهوان الفكري والنفسي الذي يلف المرأة فيه يعرف الكثيرات عن التعرض للامية .
وعلى أن المنفعة التي تحيا خارج بيتها ليست خيراً من الجاهلة التي تعيش داخل هذا البيت . .

ألا فلتعلم أنها نعمة حقيقية أن تمتد الحياة من الأباء إلى الأولاد إلى الأحفاد، وأن تكون الأسرة الوئيلة المستقرة هي المهاد الرئيس لهذا الاحتماد.

وليس الإنتاج الحيواني سر هذه النعمة ، إن العظمة هنا في توارث المغايد ، وانتقال التغايد المصححة من جيل إلى جيل . .

إن الأسوة هنا ضمن الدين وسياج مبادئه وعبادته ودور المرأة وأجرها كمدر
الرجل وأجره سواء بسواء .

وعن عظمة هذه لتعمة يقول الله سبحانه :

﴿وَاللّٰهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَجَعَلَ بَيْنَ وَحْشَةٍ

إن المرجح أن هم حملوا الأجيال المتعاقبة في قافله الخيل المسالمة ، سواء كانوا أسلافنا
أو ساسة ، أو أجراء أو بعتهم يهربون إلى ميادين فترقاء إلى الملاحع اللدنة والمربون المبول .

 $\cdot \nu \nu : j_{\text{had}}(1)$

ونشأ عن ذلك الغلو قتل إنسانية المرأة وإضاعة حقوقها الدينية والمدنية .

ثم جاء من يبلغ هذا الموج يفعل تقليد أوروبا وأمريكا ، أي استبداد ناه بناه .. ونحن نأبى خيانة هؤلاء وانحلال أولئك! .. ونريد الأوضاع التي عرفها العهد النبري ولننقذ الذي يترك هذه الأوضاع ..

إن محدثاً جليل القدر كابى عبدالله البخارى نظر الى السنن الصحيح ثم استمتع منها دون تكلف ولا تخوف أحكاماً يوقفها اليوم بعض الناس ، ففى كتاب الرضى يذكر إمام المحققين هذا الميزان وباب عيادة النساء الرجال ، وعادت أم البرداء رجلاً من أهل المسجد من الأتصال . الخ .

وفي مكان آخر يثبت عنواناً آخر باب غزو النساء وقلائهن مع الرجال، و «باب غزو المرأة في البحر»... الخ.

ولو أن امرأة طلبت شيئاً من ذلك في بعض البيئات التي عتُرف لثنتين القهرت
حقت الموت ، إلهام يشعرون البخاري للبركة لا اللغة ..

وقد يستطيعون الاستمتاع فيها بالقدح ، لأننا أحيانا هذه المصالح من جينا السمع . . . ومع ما ذكرنا فنحن نؤكد أن نشاط المرأة لا يجوز أن يكون على حساب أسرتها ، وأن حق زوجها ولولدها أسبق من شتى الحقوق الأخرى ، وقد قرأت لوزيرة فرنسية ، وأخرى إنكليزية أن أصل المرأة في بيتها هو رسلتها الأولى . . . وهذا تفكير جيد . . . فإن منععب قرية البيتة ومنصب كبير وهو في نظري يحتاج إلى مؤهلات رفيعة . . . وإنشاء الحياة وفق القرارات الإسلامية يتطلب حظوظا مفضاعة من العلم

ذلك ما يتطلب حسن التفكير والتسيق ..

والبيت الذي تكون قاعدته امرأة تنفع هذه للماني ، بيت رفيع القدر ، بل هو بيت يحتوى على أئمن الكنوز .

والنقليد للفرية هزت كيان الأسرة ، وهي تقليد تحياح العلم ، أما التقليد الإسلامية فالمازوني بها قلّة وتشرها بلقي مقالومة عتيبة خصوصاً من جهة التدينين ..

من أجل ذلك رأيت لفت النظر إلى أن وظيفة ربة البيت من أشرف الوظائف .

وقد تخرج المرأة من بيتها وراء أحمال مشروعة ، بيد أن هذه الأعمال مهما سمعت لا يجوز أن تجوز على عملها الأول الذي لا يشركها فيه أحد ..

روى ابن عبد البر في كتابه «الاستيعاب» أن أسماء بنت يزيد الأنصارية أتت النبي ﷺ فقالت : يا نبي أنت وأمي يارسول الله أنا وافدة النساء إليك . إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة . فأمنا بك وبإهلك ! إنا معشر النساء محصورات مقصورات ، قواعد بيوتكم وحاملات أولادكم ، وأنكم معاشر الرجال فنانم علينا بالجمع والجماعات وعبادة المزمى وشهود الجناز والحج ، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله عز وجل .. وإن أحدكم إذا خرج حاجاً أو معتمراً أو مجاهداً ، حفظنا لكم أموالكم وغرنا لكم أثوابكم وربينا لكم أولادكم أنشركمكم في هذا الأجر والخير؟ فالتفت النبي إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال : هل سمعتم مسالة امرأة أحسن مسالة في دينها من هذه؟ فقالوا : يارسول الله ، ماظنا أن امرأة تهتدى إلى مثل هذا .. فالتفت النبي ﷺ إليها وقال : «الحسبي أيتها المرأة ، وأفهمي من خلفك من النساء ، إن حسن تبعل المرأة لزوجها يعنى قيامها بحقه وإحسانها لشرته . وطلبها مرضاته واتباعها موافقته ، يعدل ذلك كله ..»

على أن هناك ميادين للأعمال لا بد أن يكتر فيها النساء ، أولها الميدان الطبي ، فيجب أن تكون هناك طبيبات ماهرات في كل ناحية من نواحي الطب ، والأشعة ، والصنبلة ، والولادة والتريفيض .. ثم ميدان التدريس لجميع المراحل دنياها وعلمها .

ولا يجوز أن يوصد باب من أبواب المعرفة أمام النساء إلا أن يكون لأسباب فنية أو مواصفات خاصة .

عندئذ ينطبق للتخصص على الرجال والنساء جميعاً ، فيوجه كل أحد إلى ما يناسب قدرته وخبرته .

إن النساء في عالم الكفر الشيوعى يغزون الفضاء فلا يسوغ اجتزالو الإسلام لينع المرأة من علم تحسنه ..

والنساء في عالم التثليث يشتغلن بالتبشير والاستشراق فلا يسوغ تسخير الإسلام لنوع النساء من أعمال يجدهنها ويجدين فيها ..

إن القسامة الفقهية عند بعض المشتغلين بالعلم الدنيى أخرجت الإسلام كثيراً ، ومكنت خصوصه من خناقه! وأذكر وأنا طالب في معهد الإسكندرية - من خمسين سنة - أن المذكور طه حسين فتح فصلاً للطلبات بكلية الآداب التي كان عميداً لها ..

وحلث هيجان هائل لفتح الجامعة أمام المرأة وبعد سنتين طوال ، طوال ، فتح الأزهر كلية البنات .. لقد وصل متأخراً كثيراً ..

ما السبب؟ إنها القسامة الفقهية عند بعض التحديثين باسم الإسلام ، ولما مشوا في الطريق كانوا يمشون منهزمين ، قبلوا أموراً وصوراً لا ريب في أن الإسلام يرفضها .

عندما يدعم الإسلام مكانة المرأة يعصتها من الصور الحيوانية التي أبرزتها فيها الحضارة الحديثة ، وجعلتها محوراً لإثارات متصلة تنزل العفة وتنهج العزوبة ..

الذين يشند لصون يؤثرو الاحتشام والحضارة الحديثة تشند التبرج وتقلع إلى الإغراء ومع ضعف البنين وحج الحياة العاجلة أخذ السعار الجنسى يشند ويفرض رعايته ، حتى فقد الانصاف الحرام دمايته ، وأمسى كأنه حاجة تلبي دون حرج كبير!!

والذين يرفضون أى خلوة بين رجل وامرأة ، وهم تقرب بينهم في الأعمال الحادة والمهارة ..

وكثيراً ما تساءلت : لماذا تكون للمدبره سكرتيرة خاصة؟ ..

لماذا تشتغل القتيات بالحلجمة في الطائرات ، وحدهن؟ ويقضين في الجو وفي الفنادق ليلهن ونهارهن؟ ..

إن النساء يحشرن في أعمال كثيرة لا معنى لها .. وعندما تقر أحكام الإسلام وتوجيهاته فإن ابتذال المرأة سيمنع للفور ، وسيكون عملها في أى موقع مقبوطاً بأداب الشرع وحدوده .. ذلك ، ومن الصعب أن تكون المرأة ربة بيت متقنة ، وصاحبة منصب منجدة

إن ذلك قد يقع على نذرة ، وأقترح أن تنشأ للنساء وظائف نصف وقت حتى تستطيع الزوجة القيام الحسنى على شئون بيتها وأولادها ..

ورواية أحمد في مسنده : «اطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء» .
 إن جماهير من التصوف اعتزلوا على الشق الأول من الحديث فحاربوا المال ،
 وحرقوا الغنى حتى طلعت القرون الأخيرة على المسلمين وهم صماليك الأرض ..
 وجماهير أخرى من قصار النظر والباع عدت الأثرة لئمة ، وجعلت جمهور أهل
 النار من النساء ، فهن حياقل الشيطان وشباك المعاصي ..
 وهذا المنهج في فقه الأمور لا وزن له ، وأصحابه لا علم لهم لا بكتاب ولا سنة ..
 بين الإفراط والتفريط خط وسط نريد التعرف عليه والتزامه ، وهو خط لا يتطابق
 مع وضع المرأة الإسلامية في أغلب المجتمعات ، وكذلك لا يتطابق مع تقاليد الفرجة
 التي تستمد من وثنية الرومان ومن فلسفة الإغريق ..
 إن أعلامون في مدينته «الفاصلة» يجعل المرأة مشاعا بين الآخرين ، فما تكون
 إذن المدينة الدنسة ..

على أن عقلية السجّان هي الأخرى لا تقيم أمة راقية الفكر زاكية القلب ..
 وتعاليم الإسلام الصحيحة هي الأمل في بناء عالم متراحم مصون؟ ..

إن تعاون المسلمين والمسلمات لإقامة مدينة مشرقة طاهرة أمر ميسور ..
 ويحتاج ذلك إلى محو فكرة تحقير المرأة وجعلها متهمّة حتى تثبت براءتها ..
 وهي فكرة تسيطر على بعض المتحدثين في الدين وتجعل فتاواهم أقرب إلى اللغو
 منها إلى الصديق .

إن القول بأن المرأة هي التي أخرجت آدم من الجنة تزوير على الإسلام ، والزمع
 بأنها لا تزال تقوده إلى النار تزوير كذلك ..

والتصور الإسلامي كما أثبتته القرآن الكريم : ﴿لَا أُصِيبُ عَمَلٌ عَابِلٌ مِنْكُمْ مِنْ
 ذَكَرُوا أَنْتَى بِعَقْلِكُمْ مِنْ بَعْضِ﴾ (١) .

أنتى غير على الأعراف كأشد المتزمتين ، ولكن الحفاظ على العرض لا يتم
 بعقلية السجّان .

فالبن بعيد بين تكوين العقل والضمير بالعلم والتقوى وبين حبس الأجساد في
 قفص من حديد .

والإسلام قاد المرأة إلى المسجد لتسمع الدرس ، وتجد لربها ، وبذلك صفق
 روحها وفكرها ، وفي المسجد كانت ترى الإسام وربما علقت على سلاسه (٢) .
 وكانت ترى المدرس وربما ناقشت ما يقول ..

أما عقلية السجّان فأساسها أن المرأة لا تُرى ولا تُرى ، وإذا كان المسجد مظنة
 ذلك فلا ذهاب إلى المسجد وهذا هو الإسلام في فلسفة السجّان .

عندما أثر الناس السيارة والطيارة على الخيل والبغال والحمير لم يكن ذلك تحقيرا
 للمواصلات الإسلامية الرديئة ، فما علاقة هذه المواصلات المهجورة بالإسلام؟ ..
 وعندما يتروك الناس التقاليد التي وضعتها عقلية السجّان ، فهم لم يتروكوا
 الإسلام قط ، وإنما تركوا أساليب بعض الناس في الحياة ..

والحكم هو كتاب الله وسنة رسوله أولا وأخرا .. والمشكلة تجيء من طريقة فهم
 البعض للتصور والآثار ..

روى البخاري ومسلم وأحمد عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : «اطلعت
 في الجنة فرأيت أكثر أهلها فقراء» ، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء » .

(١) روى البخاري أن امرأة نذعت بثوب الإمام لأنه مشقوقا

(٢) آل عمران : ١٩٥ .

الليل تجرات في نور - إناه من حجارة - فلما فرغ النبي ﷺ أمأثته له - أي مرسته بيدها - فسقته تحفه بذلك - وكانت امرأته خادمتهم يوسن وهي عروس .
وبديه أن ذلك الاختلاط المحذور في إظهار تعاليم الشريعة التي توجب على المرأة التحشمة الكاملة .

والحشمة الظاهرة ستر الجسد كله ما عدا الوجه والكفين .

وقد زعم البعض أن النقاب كان مفروراً على الوجه ، فلم يبد من المرأة شيء قط .
وهذا زعم مردود فقد قرأت نحو اثني عشر حديثاً في أصبح كتب السنة تشير إلى أن النساء كن يكتشفن وجوههن وأيديهن أمام النبي ﷺ ، فما أمر واحدة منهن بتغطية شيء من ذلك ، وكذلك كان أصحابه رضوان الله عليهم يفعلون .
ومع ذلك فإن ناساً لا تقه لهم ولا تقوى يسلقون السواقر بلباس حاد ، مع أنهم تألمات الحشمة ، ويورون انسياقاً مع أفكار ضيئة أن وجه المرأة وبديها وصورتها عورة .
مات سعد بن خولة في السنة العاشرة للهجرة وترك امرأته حاملاً ، وشاء الله أن تضع قبل عدة الوفاة - قبل أربعة أشهر وعشرة أيام - فتركت المرأة إحداها ، وتجلست للخطاب - اكتسبت وتختصبت وتبهأت - فلقبها رجل اسمع أبو السبائل ، وأكبر عليها ذلك وقال لها : لملك تزيدين الزواج؟ بعد أربعة أشهر وعشر .
قلت : فأنبت النبي ﷺ ، وذكرت له ما قيل . . فقال لها : قد حلت جين وضمت . . والنقصة موجودة في الصحيحين وسند أحمد ، وهي كقصص وقعت في آخر حياة رسول الله ﷺ ، ولا مسالخ للزعم بأنها قبل الحجاب . .

إن شيئاً آخر غير دين الإسلام يراد فوضه على الأمة الإسلامية . .
والذين يريدون ذلك يهتمون لدواع نفسية لا لشواهد علمية . .
والشيء الوحيد الذي يذكره هو الناسي بأهيات المؤمنين ، ويقول : لو كان الناسي يهين معلوماً في هذه القضية فلم تركه الرسول وصحابته ، ولم تركوا الوجوه مكتوفة دون اعتراض ؟ .

والواقع أن تنظيم البيت النبوي خضع للظروف خاصة ، وقد صرح القرآن بذلك عندما قال لزوجات الرسول : ﴿ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ انِّسَاءِ ﴾ (١) .

(١) الأعراف : ٣٦ .

٨٩. يرى البعض أن النقاب فريضة على المرأة، فما قيمة هذا الرأي؟

في المعصر الأول وجدنا عمر بن الخطاب - وهو المشهور بغيرته - يولي على سوق المدينة الشفاء بنت عبد الله الخزرجية قضاء الحسبة ، وهي وظيفة دينية مدنية تتطلب الخيرة والصرامة . .

وذكر ابن كثير في كتابه البداية والنهاية أن عبد الرحمن بن عوف ظل ثلاثة أيام يستشير النساء فيمن يختلف عمر بعد مقتله - من السنة المرححين - فلم يبق رجل ولا امرأة يعتد برأيه إلا استشاره . .

كانت النساء تستشارا ولم لا وقد استشار النبي أم سلمة عندما تقاضى الناس عن التحلل من عمرة الحديبية .

لما المرأة المسلمة في العصر الأخيرة فقد ملئت ألبياً وراء تقليد جاهلية ليست من الدين حتى دهمتها الحضارة الحديثة بتأثيرها اللاديه ومسلكتها الإباحية ، فلم يبرأ من الدين ما يفعلون . . لقد طلعت في السيرة النبوية أحاديث تبرز المجتمع الأول في صورة أرحم وأرحب من الصورة التي يرسمها بعض الناس للمجتمع المسلم ، وهي صورة قاتمة موحنة .

روى مسلم في صحيحه أن جارا فارسياً للنبي ﷺ كان طبيب المرق ، فمضغ لرسول الله - طعاماً - ثم جاء يدعو فقال : وهذه - لعائشة - فقال الفارسي : لا فقال رسول الله ﷺ : لا أي لا أذهب معك وحدي . فعاد يدعو . فقال رسول الله ﷺ : وهذه . . قال : لا . . فقال رسول الله ﷺ : لا . . ثم عاد يدعو - للمرة الثالثة - فقال رسول الله ﷺ : هذا قال الفارسي : نعم . فقاما يتناقضان حتى أتيا منزله (١) . .

وروى البخاري أن أبا سعد الساعدي دعا النبي ﷺ لمرسبه ، وأصحابه رضي الله عنهم ، فما صنع لهم طعاماً ولا قربة إليهم إلا امرأته أم سجد ، فقد باتت من (١) وما كان ذلك قبل نزول آية الحجاب ، لكن الحجاب خاص بأهيات المؤمنين ، كما قرر ذلك الفقهاء وروى أن الفارسي المضيف كان قد أعد الطعام لربعد فقط ولذلك تخرج من قدام ضيفين معاً . . لم يدر أن طعام الاثنين يكفي ثلاثة ، وكان الرسول الكريم يريد لباس زوجته على عائنة فارسية .

إن تحريم الزواج منهن بعده ﷺ، ومضاغفة الثوب أو العقاب لهن، تشريع خاص بهن ..

ومعروف أن البر والفاجر كانوا يطرقون باب النبي ﷺ، كيف لا وهو محط الرجال ومقصد الوفود من كل فج ..

وفي بعض البلو جراءة على النظر والقول، وبين الأعراب بقايا جاهلية في التطلع إلى النساء، فكان من إغزاز الله لنبيه أن نزلت آية الحجاب في سورة الأحزاب فتح الدخول عليهن بته، فلا يراهن أحد إلا ما استشى الله عز وجل في قوله: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نَسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَآتَيْنَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ (١) ..

وظاهر أن هذا التنظيم خاص بأسهات المؤمنين، وأنه يعد نزوله رضى النساء المؤمنات مقافات في حنين، ورئين في مناسبات كثيرة في المسجد وغيره سافرات الوجوه، فما أنكر عليهن أحد، ومن الناس من يحظر رؤية النساء للرجال والرجال للنساء مطلقاً. واستندل لرأيه بما روى من كراهية الرسول ﷺ أن يرى نساءه عبدالله بن أم مكتوم، ويرى ابن حجر أن ذلك كان لسبب خاص، هو أن عبدالله أعمى لا يحسن تعهد ثيابه، وستر بدنه كله ..

وهو تحليل اضطر إليه ابن حجر لما رأى الحديث يخالف الصحاح.

إن ابن حجر رد حديث وأفعمياوان أتمامه بطريقته الخاصة، فتغاضى عن السند، وتأول المتن .. لكن ابن العريضي رفض الحديث سنداً ومحتواً. وقال عن نيهان .. روى هذا الحديث أنه مجهول .. ونيهان هذا كان خادماً لأم سلمة رضى الله عنها، ولم يعرف بين أهل العلم بشيء وحديثه إذا كان قد خالف ما رواه البخاري في رؤية عائشة للأحباش عند عرضهم الرياضى، فهو قد خالف واقعة أخرى رواها مسلم أيضاً تتصل ببنت عم لابن أم مكتوم أمها النبي ﷺ أن تقضى عدتها عنده ..

روى مسلم عن فاطمة بنت قيس أن زوجها عمرو بن حفص طلقها البتة - طفلة ثالثة - فجات رسول الله فذكرت ذلك له، فأمرها أن تعتمد في بيت وأم شريك، ثم قال: تلك امرأة يخشاهما أصحابي، اعتدى عند ابن أم مكتوم، فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك عنده ..

(١) الأحزاب: ٥٥.

وفي رواية انتقل إلى أم شريك - وهي امرأة خفية من الانصار واسعة النفقة في سبيل الله، يتزل عندها الضيفان - فقلت: سأفعل .. ثم بنا الرسول الله لمر آخر، فقال: لا تغفلى، إن أم شريك امرأة كثيرة الضيفان، فإني أكره أن يسقط خمارك، أو ينكشف الثوب عن ساقيك فيبصر القوم منك بعض مآثرهم، ولكن انتقل إلى ابن عمك عبدالله بن أم مكتوم، فإنك إذا وضعت خمارك لم يرك - للوضع الإنزال والكشف - فانتقلت إليه، فقلت: فلما انقضت عدتي سمعت نداء النادى: الصلاة جامعة فخرجت إلى المسجد، فصليت مع رسول الله، فلما قضى صلاته جلس على المنبر فقال: إني والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة، ولكن جمعتكم لأن تيمنا الدارى كان رجلاً نصرانياً فجاء وبيع وأسلم ... الخ ..

قال الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى:

وجه دلالة الحديث على أن الوجه ليس بعورة ظاهرة، وذلك لأن النبي ﷺ أقر فاطمة بنت قيس على أن يراها الرجال وعليها الخمار (وهو غطاء الرأس) فدل هذا على أن الوجه منها ليس بالواجب ستره كما ستر رأسها، ولكنه خشي عليها أن يسقط الخمار عنها فيظهر منها ما هو محرم بالنص، فأمرها عليه السلام بما هو الأحوط لها وهو الانتقال إلى دار ابن أم مكتوم الأعمى قال: «وهذه القصة وقعت في آخر حياته ﷺ لأن فاطمة بنت قيس ذكرت بعد انقضاء عدتها سمعت النبي ﷺ يحدث بحديث تميم الدارى أنه جاء وأسلم، وإسلام تميم كان سنة تسع للهجرة، فدل ذلك على تأخر القصة عن آية الحجاب، فالحديث إذن نص كذلك على أن الوجه ليس بعورة ..

في السنة لماشرة للهجرة، وبعد نزول آية الحجاب يست سنين وقعت قصة «الخنمية» وهي امرأة جميلة الزوجة جاءت إلى النبي ﷺ يوم النحر وهو في حجة الوداع تريد أن تستقيه في شأن ما من مناسك الحج ..

قال الرواة: وكان الفضل بن العباس رديف النبي ﷺ، فلفته جمال المرأة، وقد حدثت النفس عن نفسه - كما روى أحمد في مسنده - «فكنت أنظر إليها .. فنظر النبي ﷺ فغضب وجهي عن وجهها، حتى فعل ذلك ثلاثاً وأنا لا أنتهي!».

وأصل هذه القصة ثابت في البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي، كانت المرأة وضيفة الوجه، لم يرو أحد عن صاحب الرسالة صلوات الله عليه أنه زجرها عن

والذى يصدق هذا الكلام يجب أن يكذب التواتر والمصحيح فى قضايا المرأة كلها وهذا ماقله البعض وأقيم بهدئ تقليد فرضها على الدين فرضا ، كيف احترام هذه التقليد ؟ .. وهناك آثار صحيحة للسند ، شرحها البعض من زاوية خاصة ، ولهم ما ملأوا إليه من فهم وإن كان ممثلاً ، وليس لهم إزام غيرهم .. قوله تعالى :

﴿ لَا يَشْفَعُ رَجُلٌ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ (١)

فسره أولئك بأن الزينة لا تظهر أبداً ، ولا يجوز إظهارها بتاتا ، وإن الاستثناء هو لا يقع أحيانا من معاذية الريح للتعاب المقرب على الوجه ..

إن كدغ الوجه كان المعادة المسائدة ، وزيا تقيت بعض النساء ، ولم يحدث أن النبى ﷺ اعترض امرأة سافرة ، والسند شاهد صدق على ذلك ، وكان مجتمع الصحابة قائما على هذا الوضع دون تكبر ..

وتأمل فيما رواه الإمام أحمد فى مسنده - وأحدث صحيح - قال عن أبى أسماء أنه دخل على أبى ذر يرضع وهو بالربذة - أيام عثمان - وعنده امرأة سوداء مشعثة ليس عليها أثر الحشاش ولا الخلق - لطيف - فقال : ألا تنظرون إلى ما تلبسنى هذه السرياء ؟ .. تأسرنى أن أتى العراق ، فإذا أبيت العراق سألوا على بنيهم .. وإن خليلي ﷺ عهد - إلى أن دون جسدهم طريقا دحضا ومزلة ، وأنا إن فاقى عليه وفى أحمالنا اقتدار أخرى أن تنجو من أن فاقى عليه ونحن موافق ..

بعض إذا كنا عفتا فى الدنيا قدرنا على النجاة من هذا الطريق الزلق ، أما إذا أوقرنا أحمالها وثقلنا مآزرها فسئوى ..

وأبو ذر يشكر امرأته لبعض صحبه ، لأنها تشير عليه بالارتحال إلى العراق ، وقد رأى الصحيب المرأة ووصفوها بما قرأت ..

أعترف أن هذئ من يرى أن المرأة لا يجوز أن يلبس شبحها فى مكانها فما الذى يجعل هذا الكلام هو دين محمد ، إنه أمر بالغ السخف أن يرى أحد رأيا ثم يقول : هذا هو الدين ، لا دين غير ..

نعم قد قال : هو وجهة نظرى فقه ما ورد من آثار .. ولا أحارب هذا ، وإنما أضم إلى الموضوع حقيقة أخرى ليست خاصة باليهان النسائى ، وإنما نعم كل ميدان اختلفت فيه آراء المجتهدين ..

كشف وجهها ، لو اتهمها بئث الفتنة وقلة الحياء . ولكن المالكين أكثر من الملك يريدون الاستدراك على الشرع الأعظم ، وإطلاق الستهم فى الناس ويريدون طي هذه السنن المسحاح ، وإبراز آثار منكورة قفيدة أن المرأة تغطي صبيها وبسدى آخرى . لو تغطي جسدا كله من الوجه إلى القدم ، فلا يرى منها شيء ، ولا يسمع لها صوت ، لأن الصوت هو الآخر عوراء ..

إن هذا المنظر أصفى - على امتداد القرون - آثارا اجتماعية سيئة قلت شخصية المرأة ، وإنسانيتها وأساعت ولا تزال نسيء إلى الإسلام ..

يقول البعض : لا بأس أن تضع المرأة ثيابا على وجهها اقتداء ببناء الرسول ﷺ تقول : لا بأس أيضا من تحريم المزاج على المرأة إذا مات زوجها امتلأ قلبه الأسوة ..

إننا نريد التزام خط إسلامى صحيح لا علاقة له بشريج الفريجات ولا بهوان الشريكات المسلمات وأهلر أميئتين ..

إن الغضب لله على العين والرأس .. أما الغضب لتقاليد ملصقة بالروحى دخيلة عليه فشيء لا تكثرت له ، ولا تخشى أصحابه ..

قال لى صديق : إن الطريقة التى تعرض بها قضايا المرأة تختلف تقليد قوية ومذاهب مستقرة ، وهذا بسىء إليك وقد يوقر آراء صالحة شرحها للناس فى ميادين أخرى .. قلت : نصيحة مقدورة .. وأحب أن أذكر لك ما عندى لشدرك ما هنالك .

أتنى فى هذه القضية وفى غيرها أرفض الأحاديث الموضوعة والرواية ، ولا أحترم التقليد التى تنبئ عليها .. إن العرف المسائد يحكم عليه ولا يحتكم إليه ، والأساس الروحى هو كتاب الله وسنة رسوله ..

واننى أمرد بالله أن أكون قد خرجت عليهما ، إن التواتر يحكمنى والمصحيح يلزمنى .. أما البريات الأخرى فلا اكترأت .

ومازلت أذكر أن رئيس جماعة إسلامية كتب مقالاً ضدى تحت عنوان فمدير المساجد يكلف رسول الله ﷺ ..

وقد انشعر حلقى من التهمة ، فأتانا أحد الأرقاء ، فحبل محمد ، الشاعرين بظلمته ، المتابعين لسيرته ، فكيف أكذبه !! ومحمور الغال حديث منكسر يقول إن المرأة لا ترى أحداً ولا يراها أحد ..

٩٠. يرى البعض أن هناك مملكة في عالم الغيب تتكون من الأقطاب والأوتاد. إنخ تؤثر في عالم الشهادة فما قيمة هذا الرأي؟ وما مصادر المعرفة في هذه القضايا وأمثالها؟

المعلم الذي يتلقاه الناس ويحظى بينهم بالقبول نورمان: ديتي ومدني، وكل منهما مصادره اأخترمة بين أهله، ووجوده التي يقرها خبراؤه، والراسخون فيه والعلوم الدنية متروكة للأجهاد المطلق وأساسها الملاحظة والتجربة والاستقراء، وبلا كانت هذه العلوم متصلة بشئون الدنيا، فإن دائرتها ليست ونفا على جنس من الاجناس أو عصر من الأعصار، والسباق المالى فيها يجرى دون توقف..

وقد أنهبنا المعصوم- صلوات الله عليه- أننا في هذا الفريب من المعرفة الإنسانية أحرار حرية تامة فقال: «أنا أعلم بشؤون دنياكم».

وليت المعلم الإسلامي انطلق في هذا الميدان يستدع ويكشف، ويأني بالعجائب والغرائب كما صنعت عقول أخرى..

إنه لا يتقيد في حركته هنا إلا بالحقائق التي يستقر الناس عليها، ويتجهون إليها، وليس للوحي الإلهي دخل في بعونه الكيماوية أو كثوفه الفلكية أو إنتاجه الصناعي... إلخ.

أما العلوم الدينية بأساسها العتيد، النقل عن الله ورسوله، وتستمد مكائنها من قيمة النقل، وصحة المعنى ولذلك قال العلماء: الإسناد من الدين، ولولا له لنقال من شاء ما شاء.

ولا يمكن اعتماد شيء ما دنيا إذا كان ضعيف الصلة بالله ورسوله أو منقطعها وتتفاوت قيم الثبوت تفاوتاً شاسعاً بين التواتر المقطوع به وأخبار الأحاد الممتلة التي يرفضها البعض، أو التي يترخص البعض في قبولها عندما تتعلق بفضائل، أو عناقب الرجال..

على أن ما استقر عليه الأمر في دوائر التشريع أن الأحاديث الضعيفة ليست مصدراً لحكم شرعي عظمى، وأن لقضاء والفتين في حل من التقيد بها دون تكبر ولا تألم..

هناك خلافاً لا يضر بقاؤها إلى قيام الساعة، فليقت من شاء في صلاة الفجر أو لا يقت، إن مذاهب المجتهدين هنا تترك آثاراً مهمة في مسيرة المجتمع.

لكن هناك من يرى أن الفجر والحشيش والأفيون سواء في الحرمة، وهناك من يفاوت بينها، بل هناك من يبيح بعضها، وقد شعر أولو الألباب أن الأمم التي تقبل على المخدرات أسوأ حالاً وأضعف إنتاجاً من الأمم التي تترب السكرات..

فهل يقبل من اتباع بعض المذاهب الفقهية القول بأن الإسلام يبيح كذا من المخدرات فلا تخرموا ما أحل الله؟..

لماذا لا يسكت من اعتنقوا وجهة نظر ما إذا كانت الأيام قد كشفت أن وجهة نظرهم سيئة؟..

ولماذا يريدون جعل ما يعتقدون دنياً لا ينس؟ ولماذا من هذا التعصب والجلوس؟ الأمر كذلك في قضايا المرأة.. إن ترددها على المساجد وتزودها بالمعلم سنة يسادها التواتر..

ثم نبت وجهة نظر أخرى فحرم عليها المذهب إلى المساجد، وحظر عليهم التعلم.. وهذه الوجهة لا تعدو أن تكون فهما رديفاً لا أثر ما أو تباطأ أعمى لحديث موضوع..

ثم انهار العلم الإسلامي كله، وأصبح رجاله ونساؤه أمثلة للتخلف، فإذا جاء من يعيد الكرامة الأدبية والعقلية للمرأة. ويعيد الأمة إلى معالم سلفها الأول.. قيل له: لا..

ولماذا؟ فقه مغشوش أو نقل مريض، أو رأي امرئ يريد التقدم بين يدي الله ورسوله ليجعل من سلوكه والوراثة الفجع الذي يفرض على الكتاب ولجنة لا نهج غيره..

إننا نؤكد أن النصوص على العين والرأس، وأن الخلاف الفقهي وجهات نظر تخضع للموازنة والتوجيه ولا قداسة لإحداها، وأن من حق المسلمين في أي بلد أن يدعوا رأياً تبين من تطبيقه أنه حلهم في الداخل وأزرى بهم في الخارج..

ولا يوصف أبداً ترك هذا الرأي بأنه ترك للدين، بل إن أغلب ما يشجع بين المسلمين في المجال الإنساني مخالف للدين، وليس وراثة اتباع محتوم..

من أجل ذلك كله أرفض عرض الإسلام في هذا العصر على أنه نقاب، أو أنه رفض لشهادة المرأة وعملها فيما تصلح له، أو رفض لقيادتها السيارة مثلاً، ورفض لاصطلاحها بجام تطبيقها مع تأكيد أن عمل المرأة في الأسرة يعدو كل أصنافها الأخرى ويحكمها..

نسب المقامات وافاضات الكشوف لكن ملاكوتنا هنا هو الأوتق عندنا ، والله أعلم .
وعندنا أيضاً أن كل مستوى من هذه المستويات محفوف بأرواح كل من سبق أن
شمله من أهل الله السابقين وعلى هذا فإن شامله من الأحياء يعتبر مثلاً للأرواح
التي سبقت ، إلى هذا المقام ، فهي تحوطه ، ومنها يستمد الكثير من السر والرافضة .
وكما أرجعت أقدام الأقطاب الأربعة للكبار إلى نظام أهل اللأ الأعلى باعتباره
مرجع النظام الكوني كله ، ولتناسب الرابط بينه وبين العالم الأرضي حقيقة مسلمة
فكذلك . مقام الإمامين أحدهما مستغرق في (الجلال) على قدم (ملك النار) ومن
هنا صرح مقام (الكمال) للثبوت الأعظم ، جامعاً فيه بين الجمال والجلال ..

ثم نجد مقام الإمامين عند أهل الكشف مثلاً ، هما مقاماً : آدم والبريس ، ثم
إلياس وإخضر ، ومن شاء الله من أهل النبوات ، ثم من على أقدامهم من الروائيين
مشهورين أو مستورين ، وكان على مقام الإمامين السعيدان : سيد الأوس والخزرج ،
والسعيدان : ابن السيب وابن جبير ، والصاحبان الفقهيان : أبو يوسف ومحمد بن
الحسن ، ولشيخان المحدثان : البخاري ومسلم وهكذا ..

ويجتمع (أهل الديوان) وهم كبار أصحاب الوظائف الغيبية ، أرواحاً
وهيولاً ، في المشاهد الثلاثة القديمة : الحرم المكي ، والحرم النبوي ، وبيت
القدس ، ثم في أماكن مقدسة أخرى يكشف عنها لأهل القلوب ، على توقيت
وترتيب دقيقين ، فليس في الغيب فوضى ، ولا تجمد وعلم ، ولا انفصال الغريب
الفصل العاشر ١١٠ هـ .

قرأت هذا الوصف للكون وحركات عالي الغيب والشهات ثم تساءلت عن هذا اللون
من المعرفة : أهو مادي النسي أمته من علم الكون والحياة والطبيعة والكيمياء ؟
وكان أجواب السريح : لا .. فإن علماء الكون والحياة لا يعرفون من هذا الكلام حرفاً ..

أهو ديني يلتقي أمته من الكتاب الكريم والسنة المطهرة ؟
وراجعت سور القرآن كلها ، فلم أجد لهذا الكلام شامداً ، وأخذت أتذكر ما
أعرف من لسنن التي رواها البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود والنسائي وابن
ماجه وابن حنبل .. إلخ ، فلم أجد لهذا الكلام شامداً ..

قلت : هل هذا الكلام رأي فقهي يستند إلى أثر ضعيف عند الناس قوى عند
صاحبه ؟ . إن هذه الآراء وجدت في علومنا ، ألا ترى الأحناف يحكمون بنقض

فإن لم يكن تمت سداد من نص ديني قوى أو ضعيف ، فلا مجال للزعم بأن
الله في هذا الأمر توجيهاً خالصاً ..

لناس أن يقولوا ما يقولون من عند أنفسهم ، ولكن لا مكان لإعطاء كلامهم
عالة معينة توهم بأن لهذا الكلام صلة بالدين ..

إنني أثبت هذه المقدمة وبين بدئي نقل طويل قرأته لإمام من أئمة التصوف
المعاصر تحت عنوان : مراتب أهل الغيبه مابلي .

للمعرفية - بحسب مراتب الأذواق والكشوف والمقامات ، مؤيدة بمقاهيم الآيات
والآثار - أقوال شتى في مراتب السادة (أهل الباطن) المعروفين عندهم باسم (أهل
الغيب) أو (أهل الديوان) وتتلخص هذه الصورة تقريباً في الآتي :

١ - لغوث الأعظم ، ولغوث الجميع ، الذي هو قدم النبي ﷺ ومجمله لروحي حول العرش .
٢ - ثم الإمامان ، وهما وزيرا القطب عن يمينه وشماله ، ومجالهما لروحي في طرفي
العرش (فعرش بقاء ، ما دون العرش بالعين) .

٣ - ثم الأوتاد ، وهم الأقطاب الأربعة الكبار ، ومجالهم لروحي : الجهات الكونية الأربع .

٤ - ثم الأبدال السبعة ، ومجالهم لروحي : السبع الطباق ..

٥ - ثم اللقباء الاثنا عشر ، ومجالهم لروحي : البروج السماوية الاثنا عشر ..

٦ - ثم لقياء السبعون ، وهم أهل الخيرة والبقات ، ومجالهم لروحي : الأفلاك والنجوم ..

٧ - ثم الأخيار وهم أخواريون وأهل المارح وعددهم بين الثلاثين والثلاثمائة ، ومجالهم
لروحي : أقطار الأفق الأعلى ، وأصحاب هذه المقامات السبعة هم الأقطاب .

٨ - ثم المفرحون ، وهم الأولياء المختارون من صالحى الأمة ، ولا عدد يحصرهم ،
ومجالهم لروحي الأفق الأدنى .. وأقطار المدن والقوى ..

٩ - ثم الصالحون ، وهم أقبياء الأمة وهم درجات شتى ، ومجالهم لروحي الروحانية
متعددة ، ثم إن لكل صاحب مقام من هذه المقامات خلفاء وعرفاء ، فإذا خلا
المقام انتقل إليه الخليفة ، ثم ارتفع العريف إلى رتبة الخليفة ، واختير من المستوى
التالى من هو أهل المراقبة ، وهكذا ..

وقد تختلف هذه الصورة عند بعض السادة في التسميات والأعداد وترتيب
المستويات وكلها صحيح في ذاته معال ببليده (كما قدمنا) وهو راجع إلى اختلاف

لكن ليس من النظر بنور الله أن نفتتح أبواب الرجم بالغيب لكل إنسان مهما اجتهد في عبادته وتقواه، ليقول في دين الله كلاماً لا يرهان له به إلا المماناة الخاصة والكشف الذاتي.

إن قسم السعيات من ديننا يشمل الأمور الغيبية التي لاتعرف إلا عن طريق المعصوم، فالصراط والميزان، ونواب القبر وعقابه، وشئون الملأ الأعلى، وبعض الأوصاف الإلهية، كل أولئك لا ينفرد العقل بإدراكه، ولا سبيل للبشر إليه إلا بتوقيف من الشارع نفسه ..

فإذا جاء امرؤ فزعم أن حملة العرش الشمانية تحتهم ستة عشر ملكاً، ثم اثنان وثلاثون ملكاً... وهكذا متواليات هندسية قلنا له: من أين جئت بهذا الكلام؟ ..

ومن حقنا أن نقول له هذا... بل إننا نجزم في حق ديننا إذا لم نقل له: من أين جئت بهذا الكلام؟ ..

فلماذا لم يذكر آية من كتاب، ولا أحاديث مقبولة عن رسول الله وجب أن نحو هذه الزيادات وأن نرفض تلك الإضافات.

والقامات الكبرى التي شرحها الأستاذ محمد زكي إبراهيم، وتحدث فيها حديثه للون في مجلة المسلم عن الملائكة والأقطاب هي إقحام لجملته من المعلومات الغربية على قسم السعيات في ديننا، دون أن يكون لهذه المعلومات الدخيلة أي إسناد من كتاب أو سنة ..

وقد هدد من ينكرها بأنه وعند أهل الحق معصوق عن السلوك، مؤخر عن الوصول، معرض للسلب والاستدراج!

بل قال إن إنكارها وموطئ لما قد يكون به سوء الخاتمة والعياذ بالله، لأنه حكم على مجهول لا يقين عليه لغير العالم به فيسلم له!! ..

وتقول دون تردد: هذا باطل، فقد انتهى الوحى، ولا نسلم لبشر أن يزيد في حقائق الدين، بل إن الزيادة في هذا الباب لا تقل خطراً عن وضع الأحاديث على رسول الله ﷺ، ومن حق المسلمين في الشارح والمغارب أن يتنادوا: هذا وحى من عند الله فيقبل وهذا لغو من عند الناس فيرفض.

ثم إنه في باب السعيات لا تقبل الروايات المعتلة، ولا الأسانيد والشون المختلفة، لقد ذكر السيوطي في كتابه «الإتقان» أن هناك ثلاثة أقوال في ألفاظ

وضوء من يقهقه في الصلاة اعتقاداً على أثر أخذوا به، والشافعية يشترطون أربعين لصلاة الجمعة اعتقاداً على حديث لين؟. إن أصحاب هذه المذاهب معروفون لدينا وقد يخطئهم غيرهم في هذه الآراء، وعلى كل حال فإن من ذهب إليها لا يتعصب لها ولا يظن أنها الصواب الذي لا صواب وراءه، ولا يصفها بتاتا بأنها حقائق مستيقنة! .. لكن الأستاذ الكاتب - عفا الله عنه - لا يعتمد فيما كتب على مرويات قوية أو ضعيفة، ومع ذلك فهو يتهم من يعارضه بالجهل ويوصيه بأن يمسك جهله على نفسه وحلما، ولا فهو سيقول مرطقة أو شقيقة، أو هنيئة أو فيهية باسم الدين الظالم... هكذا يقول! ..

عجبا، هل إذا أكرت اجتماع أهل الديوان من أصحاب الوظائف الغيبية، في مكة أو المدينة أو القدس - قبل احتلالها أو بعده - أتعرض لهذه التهم؟ .. لماذا؟ شيء لم يظله الله ولا رسوله، بل شيء تجزم أن أصحاب رسول الله ماتوا وهم لا يعرفون عنه شيئاً، يعتبر إنكاره مرطقة وهنيئة؟ لماذا؟

هل لأي إنسان يقوم الليل ويصوم النهار أن يقول لجماهير المسلمين كلاماً لا يعرفونه في مراجع دينهم، ويلزمهم باعتقاده؟ والا فهم جهال؟ ..

ذاك ما نرفضه جملة وتفصيلاً ..

بل إن الذي نوصي الجماهير به أن يعصوا على كتاب الله وسنة رسوله... وأن يحكموا ما عداه إلى ما ورد وثبت... فمن أتى لهم شيء من عند نفسه ردوا عليه... وليس للخواطر أو الإلهامات أو الرؤى أو الخيالات أي موقع من مصائر التشريع. لقد قرر علم الفلك حقائق معروفة عن حركات الأرض حول نفسها وحول الشمس، فإذا جاء رجل يخلف أنه لا خلاف بيننا على أن الله يؤتي فضله من يشاء، وأنه فضل بعض الأنبياء على بعض، وبعض الأمكة والأزمنة على البعض... إلخ...

لكن من أين تعرف هذه التفصيلات ومداهها؟ ..

الذي تقرره قاطعين أن الشارع وحده مصدر هذه المعرفة... ونحن من الكتاب والسنة نعرف أن المؤمن ينظر بنور الله وقد قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَأَمُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ (١)

(١) الحديد: ٢٨.

قلب الرسول الأمين هو ملك الوحي ، جبريل لا غير ..

لكن الدكتور عبد الحليم محمود عفا الله عنه لوى عن الآيات من أوائل النجم ، وجعل للذي دنا فقلبي ، هو الله - سبحانه وتعالى .

وهو خطأ مبين ، وينبغي عند تفسير آية مازلت في موضوعها آيات أخرى وأحاديث متعددة الروايات ألا نعصر أنفسنا داخل آية واحدة ، ورواية واحدة ، ثم نعتسف القول ، خصوصاً عندما يتصل الأمر بذي الجلال والإكرام .

وحب رسول الله ﷺ لا يشفع في هذا الخطأ ..

لقد اعتمد الدكتور الفاضل في رأيه على حديث البخاري أخرجه من رواية شريك بن أبي نجر عن أنس بن مالك ، وهذه الرواية مسجرجة ، قال النوري في شرحه لسلام : قد جاء من رواية شريك في هذا الحديث أوامام أنكرها عليه العلماء وقد نبه مسلم على ذلك بقوله : قدم وأخر وزاد ونقص !! يعني في الرواية التي أوردها البخاري عنه ..

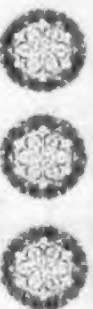
وهذه الرواية المنكرة تصرح بأن الإسراء قبل البعثة ! وأن القصة كلها رؤية عام ! وأن رب العزة هو الذي دنا فقلبي !

ومثل القاضي عياض إنكار أهل العلم لهذه الرواية ، قال النوري : وهذا الذي قاله القاضي عياض قاله غيره ..

وقال الحافظ عبد الحق في كتابه «الجمع بين الصحيحين» بعد ذكر هذه الرواية عن أنس - التي أثبتها البخاري - قد زاد فيها شريك زيادة مجهولة وأنى فيها بالفاظ غير معروفة .

هذه هي الرواية التي اعتمد عليها الدكتور عبد الحليم في تفسيره والذي دافع عنه بحرارة وأثبتته في رسالته التي نشرها مجمع البحوث ، وهو تفسير لا يقبل بثباتا !! ..

ولا أخرى لم تلقى الأحكام المطبيرة بهذه الطريقة المستغربة ؟ ولم لا تعود إلى كتبنا الأولى نستبين منها الرشد ؟ ..



القرآن ، إنها من عند محمد (كدا) ! وإنها من عند جبريل ! .. وإنها تصدق من عند الله ..

ولإيراد هذا الكلام ضرب من الجهل وقصه المسلمون أجمعون ، فالقرآن المفاظ ومعاني من عند الله ، ولكن السيوطي حاطب ليل وجماع للحق والباطل دون تحييص ، ونحن لا نأخذ ديننا بهذه الطريقة البلهاء ..

والتي أعجب : لماذا يريد بعض إخواننا أن يقرن التصوف بهذه المبتدعات والغرائب المذكورة ؟ إن التصوف عند رجاله الأوائل طريق تربية نفسية صالحة ، وتدريب على مراقبة الله ومشايدته فيما تفعل وتترك ..

ويمكن تسميته على الأخلاق الدينية ، لأن تراثه المتقى لا يخرج على هذا الإطار وقد كان أبي رحمه الله صوفياً من أتباع الشيخ أبي خليل ، فما عرفته إلا كادحاً يتقى الله في رزقه ، ويقرأ كتابه في دكانه ، ويمارش الناس على الأخوة السمعة ، ولا يعرف شيئاً بعد ذلك من هذه الخيالات .

أخشى إذا حرص صوفية العصر على التثبت بغير الكتاب والسنة أن يجرأ على التصوف جملة وتفصيلاً ، فيحتاج من أصله ..

ولهذه المناسبة نذكر ما لهجت به الألسنة أخيراً من تفسير الدكتور عبد الحليم محمود لأوائل سورة النجم .

يقول الله تعالى وأمنا الوحي النازل على نبيه محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿وَعَلَّمَ شَدِيدُ الْقُوَى ﴿٥٠﴾ ذُرْوءَهُ فَاَسْتَوَى ﴿٥١﴾ وَهُوَ بِالْأُفْقَى الْأَعْلَى ﴿٥٢﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٥٣﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٥٤﴾ فَنَسْفَذَ حَبَدِيدَ الْقَوَى الّذِي اسْتَوَى بِالْأَفْقِ ثُمَّ اقْرَبَ مِنَ الرُّسُولِ فَفُطِمَهُ مَتَعَلِّمٌ ۝ ٩﴾

في سورة التكويد يذكر هذا المعنى بأسلوب آخر ﴿وَأَنَّهُ نَقُولُ رُسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿١٢﴾ ۝ ١١﴾ إلى أن قال : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفْقَى الْغَبِيَّةِ ﴿١٣﴾ ۝ ١٣﴾

وفي سورة الشعراء يصاغ هذا المعنى نفسه في قلب آخر : ﴿وَرَأَاهُ تَقَرُّبًا لِّرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٦﴾ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ ﴿١٦٧﴾ عَلَيْنَ قَلْبِكَ لِنُخَبِّرَنَّ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٦٨﴾ ۝ ١٦٨﴾

(١) التكويد : ٣٠ ، ١٩ .

(٢) الشعراء : ١٦٦ - ١٦٨ .

(٣) التكويد : ٣٠ ، ١٩ .

(٤) التكويد : ٣٣ .